الباب الرابع

أهم المقامات والأحوال

١- التوبة

٢- المحاسبة

٣- المحبة

٤- التقوى

٥- الإخلاص

أولاً- مقام التوبة

- قال أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي رحمه الله وهو من أعلام التصوف: (أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة). (اللمع، السراج الطوسي ص٦٨)

- (التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، **وحقيقة التوبة في اللغة**: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، **فالتوبة**: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه). (الرسالة القشيرية، القشيري ص٩١)

- **فالتوبة إذاً**: هي رجوع العبد إلى ربه من الأوصاف المذمومة في الشرع إلى الأوصاف المحمودة فيه، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين، وشرط في صحة السير إلى الله رب العالمين.

- ولقد زخر القرآن الكريم بالآيات الدالة على هذا المقام وساق أهل التصوف بعضاً منها للاستدلال على هذا المقام كما في قوله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

- وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

- قال أبو طالب المكي (واعظ زاهد، فقيه): (في الآية الأولى إنها خطاب للعموم وفي الثانية إنها خطاب للخصوص). (قوت القلوب جزء ١ ص ١٧٩)

- وكان الرسول المعصوم عليه الصلاة السلام كثيراً ما يجدد التوبة ويكرر الاستغفار تعليماً للأمة وتشريعاً فقد روى الأغرّ بن يسار المزني ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ». (أخرجه مسلم)

- وكان أصحاب النبي ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (رياض الصالحين، الإمام النووي ص٢٢)

- قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المعصيَةِ.

والثَّاني: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبداً. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلَّقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هذه الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْف ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانَت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ).

(رياض الصالحين، الإمام النووي ص ٢٢)

- قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَد مِنْ عِرْضِه أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

(أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- وقال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ، وَلاَ مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلاَةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

(أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ)

- هذا وإن الله ﷻ يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

- ويفرح الله ﷻ بتوبة عبده فرحاً شديداً بين ذلك حديث متواتر عن النبي ﷺ رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، والنعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لَلهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بأرضِ فَلاة، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبينما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بها قائمةً عندَهُ، فَأَخَذَ بخطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ». (أخرجه مسلم في صحيحه)

- والله ﷻ يحب من عبده إذا أذنب أن يتوب، وقد جعل له باب التوبة مفتوحاً ليل نهار، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». (أخرجه مسلم في صحيحه)

- وعندما يتوب المسلم فالله ﷻ قد يقبل توبته ويمحو سيئاته ويعفو عنه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

[الشورى: ٢٥]

- وقال رسول الله ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ».

(أخرجه ابن ماجه في سننه عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ)

- ولابد لمن سلك طريق التصوف وابتدأ بمقام التوبة أن يكثر من الاستغفار لأنه من أسباب قبول التوبة، والاستغفار - مصدر فعله استغفر- أي طلب الغفران، والغفران من الله للعبد أن يصونه عن العذاب فيقبل توبته، ويبعده عن المهالك، ولقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الاستغفار منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح ﵇: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ٩-١١].

- وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

- ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]

- وقال جل وعلا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

[النصر: ٣]

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

- يقول الإمام علي كرم الله وجهه: (ثنتان تُؤمنان من العذاب، وقد رفعت إحداهما وبقيت الثانية، وتلا هذه الآية، ثم قال: العجب ممن يهلك، ومعه النجاة، قيل وما هي؟ قال: الاستغفار، وقال: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار، وهو يريد أن يعذبه). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء١ ص٣٢٠)

- وقد تحدث النبي ﷺ عن أهمية الاستغفار في أحاديث كثيرة منها: «ألا أدلكم على دائكم ودوائكم ألا إن داءكم الذنوب ودواءكم الاستغفار».

(أخرجه البيهقي والديلمي عن أنس ﷺ)

- وقال ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ».

(أخرجه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- وقال ﷺ: «إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلاؤُها الاستغفار».

(أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس ﷺ)

- وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ (وغين على الرجل ركب قلبه السهو والغفلة) عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

(أخرجه مسلم في صحيحه عن الأغر بن المزني ﷺ)

- وينبغي للسالك طريق التصوف وهو طريق الله ﷻ في أول مقاماته التوبة، وأن تكون توبته توبة نصوحاً، والنصح في التوبة هو تخليصها من كل غش وفساد، وأن يكون عهد بينه وبين الله ألا يعود إلى ما كان عليه من الذنوب.

- قال سعيد بن المسيب: (توبة نصوح: تنصحون بها أنفسكم). (تفسير القرطبي)

- وقال الحسن البصري: (هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود إليه). (تزكية النّفُوسِ، د.أحمد فريد ص٧٩)

- وقال الواسطي أبو الحسن علي بن الحين بن أحمد الشافعي الزاهد:

(التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً).

(الرسالة القشيرية، القشيري)

- وينبغي لهذا السالك أن يبدأ طريقه إلى الله بهذه التوبة النصوح من كل ما مضى من الذنوب المتعلقة بحق الله ﷻ قبل سلوكه، وينبغي له أن يرد للآخرين جميع حقوقهم عليه، ثم ينبغي له بعد ذلك أن يبتعد عن الذنوب صغيرها وكبيرها فإن غفل وارتكب ذنباً فعليه أن يستغفر الله ﷻ من ذلك الذنب ويتوب إليه مباشرة، وأن يكون ذلك ديدنه طيلة حياته.

- وينبغي لهذا السالك إذا غفل عن التوبة، واستغرق في ذنوبه مدة من الزمان أن يعاود الرجوع إلى الله ويتوب إليه لأن الله تواب رحيم ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقال أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ عَبْداً أَصَابَ ذَنْباً - وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْباً - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ- وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به غَفَرْتُ لعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْباً أَوْ أَذْنَبَ ذَنْباً، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به غَفَرْتُ لعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْباً — قَالَ، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ - أَوْ أَذْنَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثاً - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». (أخرجه البخاري)

- حكي أن شاباً عبد الله ﷻ عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإذا رجعت إليك فهل تقبلني؟ فسمع نداءً يقول: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فما تركناك، ورزقناك وأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قَبِلْنَاك.

- قال أحد المربين العارفين: إن الشاب إذا بكى من ذنوبه، واعترف بعيوبه إلى سيده ومحبوبه، وقال: إلهي أنا أسأت، فيقول الله تعالى: وأنا سترت، فيقول: إلهي أنا ندمت، فيقول الله تعالى: وأنا علمت، فيقول إلهي رجعت، فيقول الله تعالى: وأنا قبلت، وعفوت، وغفرت.

- أخيراً ينبغي على السالك مقام التوبة أن يراقب نفسه فلا يرتكب ذنباً بحق الله فهو في صحوة دائمة ومراقبة مستمرة، ومع ذلك قد يغفو أحياناً أو يسهو فيقع في الذنب فيشعر به مباشرة، وكأنه وقع عليه جبل، كما ورد في الحديث فيسرع في الإقلاع عنه والندم عليه ثم يستغفر الله كثيراً، ويبكي ويعاهد الله ألا يعود لمثله مبتعداً عن أصدقاء السوء ومجالسهم، وعما سبب له تلك الغفلة، ثم يكثر من الحسنات والصدقات إلى أن يشعر أن الله ﷻ قد غفر له ذنبه، ومحا عنه أخطاءه، وقبله وسامحه، يدعو دائماً بدعاء النبي: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ

وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ». (أخرجه أبو داود في سننه عن علي ﷺ)

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ اغْفِر وارْحَم وتجاوَزْ عما تعلم، إِنَّك أنت العليُّ الأعظم». (جامع الأصول من أحاديث الرسول عن أنس بن مالك ﷺ)

ثانياً: مقام المحاسبة

- **المحاسبة:** (هي تهيئة الوازع الديني في النفس، وتربيتها على تنمية اللوم الباطني الذي يجردها من كل ما يقف أمامها عقبة في طريق الصفاء والمحبة والإيثار والإخلاص).

(حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى ص٢٣٥)

- وقد أشار الله ﷻ في قرآنه إلى محاسبة النفس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

- قال الإمام ابن القيم: (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس).

(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جزء١ ص٨٤)

- وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أي: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، واعلموا أنه عالِمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية).

(تفسير ابن كثير جزء رابع ص٣٦٥)

- وأشار النبي ﷺ إليها أيضاً فقال: «الْكَيِّسُ (أي العاقل) مَنْ دَانَ نَفْسَهُ (أي حاسبها) وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ».

(أخرجه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس ﷺ)

- **ولمحاسبة النفس خطوات متعددة:**

أولاً: مشارطتها، وذلك بركون المسلم إلى نفسه، والحديث معها مبيناً لها حقيقتها، وما يجب عليها أن تسير عليه من اتباع الشرع، وأوامر الله، وسنة رسوله، والبعد عن الهوى والشهوات والمعاصي والمحرمات، موضحاً لها نتائج كل طريق منهما في الدنيا والآخرة، فيشترط عليها اتباع طريق الحق والبعد عن طريق الباطل.

ثانياً: إرشادها إلى الحق والخير والنجاح والفلاح، والسير على منهجه وسلوك طرقه وأساليبه.

ثالثاً: مراقبتها في حركاتها وسكناتها، وفي أقوالها وأعمالها، وفي نياتها وظاهرها، وفي كل أمورها.

رابعاً: محاسبتها على كل أعمالها وما يصدر عنها.

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر إلى العمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: (رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن أحدا لا يعمل حتى يهم، فإن كان لله ﷻ مضى، وإن كان لغير الله أمسك). (أخرجه البيهقي في شعبه)

أما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل، وهو أربعة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم تؤدها على الوجه الذي ينبغي، فيحاسب نفسه عن تقصيرها، ويلزمها أداءها بأفضل ما يجب أن تكون.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله، فيحاسبها لماذا عملت به؟ أليس من الأولى تركه، وأنّ عليها ألا تقوم به مرة ثانية.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد، لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به.

الرابع: أن يحاسب نفسه على أمرٍ فعْلُهُ فيه معصية لله ﷻ، وهنا يكون حسابه لنفسه شديداً، وعتابه لها كبيراً، كيف ارتكبت الحرام؟ كيف فعلت الذنب؟ كيف فعلت المنكرات؟ كيف عصت ربها؟ كيف وكيف وكيف...

ثم يبكي على ما أحدث ويندم، ويستغفر ويتوب ويتصدق، ويعاهد الله ألا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

- وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر منها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار، والصدقات والحسنات الماحية، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

- ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه.

- ماذا أردتُ بهذا؟ ولِمَ فعلت؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجهٍ فعلته؟

- ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة ديوانان: لِمَ فعلته؟ وكيف فعلته؟

- فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، قال تعالى:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

- فإذا سئل الصادقين عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنّ بالكاذبين!

- وقد درج السلف الصالح على محاسبة أنفسهم محاسبة شديدة، ولم يغفلوا عنها أبداً، وقد أعطونا دروساً نافعة بذلك أذكر منها:

- قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزيّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية».

(أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد)

- وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ وكان من عماله: «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء

قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة ومن ألهته حياته وشغله بهواه عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما ينتهى عنه».

(أخرجه البيهقي في شعبه)

- عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يوما وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله، ابن الخطاب أو ليعذبنك».

(محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص٤)

- وقال الحسن: (المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ﷻ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله، ما صلة إليك هيهات، حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات ما أردت إلى هذا وما لي ولهذا والله ما أعذر بهذا والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله). (محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص١٨)

- وقال الحسن أيضاً: (أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذي هموا به لهم مضوا وإن كان عليهم أمسكوا قال: وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر وقرأ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩)). (محاسبة النفس، ابن أبي الدنيا ص١٥٦)

- قال وهب بن منبه مكتوب في حكمة آل داود: (حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يُفْضِي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقلوب). (أخرجه البيهقي في شعبه)

- وعن ميمون بن مهران (فقيه من القضاة، وكان ثقة في الحديث) قال: (لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء٧ ص٥١)

- ومن أهم فوائد محاسبة النفس الاطلاع على عيوبها، ومن لن يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

- عن أبي الدرداء ﷺ قال: (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً). (أخرجه ابن عساكر في جامع الأحاديث)

- وينبغي للمؤمن ألا يكتفي بالمقت فقط، وإنما يسعى إلى معالجة أمراضه، ويسعى إلى دواء شفائه.

- ويذكر الإمام ابن قيم الجوزية ما يعين على محاسبة النفس فيقول: (ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً).

(إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية جزء١ ص٨٠)

- ويعينه عليها أيضاً: (معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فكل

نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها يمكن أن يشتري بها كنـــزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

(إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية جزء ١ ص٨٠).

- ويرتبط بمحاسبة النفس مجاهدتها إن وجدها نزاعة للشر، محبة للمعاصي، مسرعة إلى الهوى، تواقة للشهوات، مهملة للفرائض، تاركة للنوافل، مبتعدة عن الطاعات، فوجب عليه أن يجاهدها فيما تريده، ويخالفها فيما تحب

- ومعنى يجاهد نفسه أي: يمنع نفسه أن ترتكب المحرمات، ويخالفها في حبها للمعاصي والأهواء والشهوات، وينهاها عن كل ما يبعدها عن الله ﷻ.

- ومجاهدة النفس تحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة صادقة، تنبع من إيمان هذا المسلم العميق، ومحبة الله سبحانه وتأييد الله له ومعونته، فهي تشبه مجاهدة العدو وقتاله، فلذلك سميت بالمجاهدة، بل جعلها النبي ﷺ الجهاد الأكبر فقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس). (أخرجه البيهقي في شعبه عن جابر ﷺ)

- وقال ﷺ: (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ ﷻ).

(أخرجه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد)

- وقد يُسائلُ المسلمُ نفسه كيف تكون المجاهدة؟

- أجاب القشيري عن هذا السؤال بقوله: (واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات

فإذا جمحت عند ركوب الهوى وحب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى). (الرسالة القشيرية، القشيري ص٣٥)

- وأنواع المجاهدة كثيرة، وكل مسلم يليق به نوع منها ربما لا يليق بغيره، وذلك على قدر قوة المسلم وضعفه، وعلى قدر إرادته وقدرته، وبحسب زمانه ومكانه.

- فمن المجاهدة: الإكثار من الصلاة والصيام، والصدقة والنوافل، والذكر وقراءة القرآن، وغير ذلك مما فيه تقربٌ إلى الله، وبعدٌ عن هوى النفس.

- ومن المجاهدة مجالسة الصالحين، والعلماء العاملين، والإخوة المتقين، ففي ذلك عون على إبعاد النفس عن مُشتهياتها، وعن غيها ومعصيتها.

- ومن المجاهدة حرمان النفس من مشتهياتها ورغباتها وشهواتها، وذلك عن طريق الإقلال من الطعام والنوم، ومع الصيام والقيام، فإن ذلك يساعد على إضعافها، وإضعاف طلباتها.

ويتصل أيضاً بمحاسبة النفس معاتبة النفس ومعاقبتها وذلك إذا ارتكبت المعاصي أو قصرت في حق الله ﷻ، وتمادت في غيها وتقصيرها، حتى ترتدع ولا تعود إلى مثل ذلك.

فهو يعاتبها على ذلك، ويذكرها بالله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية، ويذكرها بالموت والحساب، والجزاء والنار والعقاب.

فإن لم تقنع بالمعاتبة عاقبها على تقصيرها، وإهمالها لحق ربها، وارتكابها للذنوب والمعاصي.

- والمقصود من معاقبتها، حرمانها من بعض حقوقها والمباحات لها من طعام أو شراب أو نوم أو راحة أو رحلة أو نزهة أو غير ذلك مما تشتهيه وتحبه وترغب فيه، مع الإكثار من تلاوة القرآن والذكر والصلاة والصوم والقيام والصدقات، وغير ذلك من أعمال الخير والطاعات، كي ترتدع عن غيها، وتقصيرها وإهمالها، وترجع إلى بارئها.

- وقد أورد المحاسبي جواباً عن سؤاله: كيف أعاتب نفسي على ما جنت؟ فقال:

(تفرق بينها وبين محابها، وتأخذ سوط الخشية لها بدوام الرعاية لها في سعيها، وتضاعف عليها أورادها، وتزيد في كدها، وتنقص من غذائها، وتقطعها عن ملاذها، وتجرعها غيظ التهديد زجراً لها، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها، فعند ذلك تذل في نفسها، وتخضع بعد كبرها، وتسقط من كَلَبها (شراهتها) وشرها، وتمر على الاستقامة إلى خالقها، ومن الله التوفيق). (الوصايا: ص٢٣١)

- **وأخيراً**: فنعلم أن معاتبة النفس سنة من سنن الصالحين دأبوا عليها كلما وجدوا من أنفسهم غفلة أو حباً لمعصية، وقد ذكر الغزالي في إحيائه كثيراً من هذه المعاتبة أنقل منها نموذجاً لمعاتبة الصالحين لأنفسهم أوردها المقدسي: (واعلم: أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، و لم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها. وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قرِّبي أصبعك من النار، يا نفس إن كان

المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟ فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم إلى الأبد أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً، فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد، الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم ألم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أَمَا بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طول، وأعدي الجواب للسؤل. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن تكون خروج اضطرار إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكِ على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة). (مختصر منهاج القاصدين، المقدسي ص٣٧٧).

ثالثاً: مقام المحبة

- المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدم من مقدماتها.

الحُبُّ من العواطفِ الإنسانيةِ البشريةِ، التي تَكمُنُ في أعماقِ النفسِ، وتَظْهَرُ على الإنسانِ بِشْراً وسعادةً وسروراً.

- وأفضلُ تعريف للحب هو: (الميلُ الدائم في أعماق القلبِ الهائم)، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب، وموافقة الحبيب في الشهد والمغيب. والمحبة عروس ومهرها النفوس ولها تخضع الرقابُ والرؤوسُ وهي للعارف نور، وللجاهل نارٌ.

- والحب مأخوذة من الحُبِّ الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسع غيره، لذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه.

- وللإنسانِ محبوباتٌ كثيرةٌ، منها محبة الله ﷻ ومحبة الرسول ﷺ ومحبة الصالحين ومحبة الوالدين، ومحبة الزوجة، ومحبة الأولاد، ومحبة الأرحام والأقارب، ومحبة المؤمنين إلى غير ذلك ولكلِّ محبوب نوعٌ من الحب يختلفُ عن المحبوبات الأخرى ويرتبطُ بهذا الحبِ مُتعلّقات تختلف من حبٍّ إلى آخر، فحبُّ الله يختلفُ عن حبِّ الوالدين وحبُّ الوالدينِ يختلفُ عن حبِّ الزوجةِ ويختلف عن حبِّ الأولادِ.

- وهكذا يمكنُ للقلبِ أن يُحبَّ الجميعَ بآنٍ واحدٍ ولكن لكلِّ محبوبٍ تَوَجُّهٌ خاصٌ من القلبِ نَحوَهُ.

- وفي مقام المحبة سنتناول الحديث عن محبة الله ﷻ ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصالحين.

➢ أولاً - محبة الله ﷻ:

- أهم محبوب عند المسلمِ اللهُ ﷻ، بل محبةُ اللهِ لا يماثلُها شيءٌ كما قالَ تعالى مبيناً الفرق في المحبةِ بين الكافرِ والمؤمن: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

- ومحبةُ اللهِ هي الإيمانُ اليقينيُّ الحقُّ به، والأنسُ به والتقربُ إليه.

- وحبُّ اللهِ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ.

- بل ويجب على المسلمِ ألا يسيطرَ عليه شيءٌ من محبوباتِ الدنيا، فيتقدَمَ حبُّه على حبِّ الله ﷻ قال سبحانه مبيناً ذلك: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

- وأكّدَ الرسولُ ﷺ هذا المعنى، فقال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما». (أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ)

- ومن علاماتِ محبةِ اللهِ تعالى اتباعُ رسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

- أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: (إني إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك).

(حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني جزء١٠ ص٢٠)

- وكيف لا يُحبُّ المسلمُ ربَّهُ حباً عظيماً يَفُوقُ كلَّ حُبٍّ! وقد أَنْعَمَ اللهُ عليه بنعمٍ كثيرةٍ منها خَلْقُ الله له، وتعريفُهُ به وأخذُهُ بيده إليه، وتسخيرُ ما في الدنيا

جميعاً له قال ﷻ مذكّراً عبادَهُ بهذه النعم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

[إبراهيم: ٣٤]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

- ويقول الرسول ﷺ: «أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ من نعمه».

(أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- كيف لا يحب القلب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيبُ الدعواتِ ويُقيلُ العثراتِ، ويغفرُ الخطيئاتِ، ويَسْتِرُ العوراتِ، ويكْشِفُ الكُرُبات، ويُغيْثُ المستغيثينَ، ويقبلُ طلباتِ الداعينَ إلا هو؟

- فهو سبحانَه أحقُّ من ذُكِرَ، وَأَوْلَى من شُكِرَ، وأحقُّ من عُبِدَ، وأَجْدَرُ من حُمِدَ، وأَنْصَرُ من اسْتُنْصِرَ، وأرأفُ مَنْ مَلَكَ، وأجودُ من سُئِلَ، وَأَوْسَعُ من أعطى، وَأَرْحَمُ مَن استُرحِمَ، وأَكْرَمُ من نَصَرَ، وأَعَزُ من التُجئَ إليه، وأكفى مَنْ تُوُكِّلَ عليه، وأرحمُ بعبدِه من الوالدة بوَلَدِها، وأشدُّ فرحاً بتوبة التائبِ من الفاقدِ لراحلته التي عليها طعامُهُ وشرابُه في الأرض المهْلَكَة، إذا يئسَ من الحياةِ ثم وجَدها، وهو المَلِكُ لا شريكَ له، والفردُ لا ندَّ لَهُ، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجْهَهُ.

- إن محبة الله ﷻ هي حياةُ القلوب، وغذاءُ الأرواحِ، وليس للقلبِ لذةٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلا بها، وإذا فقَدها القلبُ كانَ أَلَمُهُ أعظمَ من ألمِ العينِ إذا فَقَدَتْ نورَها، والأُذنِ إذا فَقَدت سمعَها، بل إنَّ فسادَ القلبِ إذا خلا من محبةِ فاطرِه وبارئِه وإلهِه الحقِّ أعظمُ من فسادِ البدنِ إذا خلا من الرُوح وهذا الأمرُ لا يُصَدِّقُ به إلا من فيه حياةٌ، وما بجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ، وأهمُّ علامةٍ على صِدْقِ المسلمِ في محبةِ اللهِ ﷻ طاعةُ اللهِ والتزامُ أوامرِه والبعدُ عن معصيتِه.

- قال الحسن بن محمد ابن الحنفية (ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق جزء٢ ص٤١٧): من أحب حبيباً لم يعصه. ثم قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... عار عليك إذا فعلت شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع

- وهناك علامَاتٌ كثيرةٌ للمحبِّ الصادقِ ودلائلُ واضحةٌ، منها زُهْدُهُ في الدنيا وبكاؤُهُ على أخطائِهِ، وتسليمُهُ لأمرِ اللهِ ورضاؤُهُ بحكمِهِ سبحانَه قال يحيى بن معاذ: (قوت القلوب، أبو طالب المكي ص٤٦٤).

ومن الدلائلِ زُهْدُهُ فيما يَرَى ... من دارِ ذُلٍّ والنَعيم الزَّائِلِ
ومن الدلائلِ أن تَراهُ باكياً ... أن قد رآه على قبيحِ فعائلِ
ومن الدلائلِ أن تراهُ مُسَلِّماً ... كلَّ الأمورِ إلى المليكِ العادلِ
ومن الدلائلِ أن تراهُ راضياً ... بمليكِهِ في كلِّ حُكْمٍ نازلِ

- وإذا أحبَّ العبد ربه وسكنت محبته في قلبه أنارت بأنوار المحبوب فأثرت وأثمرت في القلب سبعة أشياء وهي: إخلاص النية لله، والخوف من الله، ورجاء ثواب الله، والصدق مع الله، والتوكل على الله، وحسن الظن بالله، والشوق إلى الله.

- من أحبَّ الله حقَّ المحبة هانَ عليه أن يَمْتَثِلَ أوامِرَه كامِلَةً، باذلاً في سبيلِهِ كلَّ ما يستطيع، مسروراً بما يُقَدِّمُهُ إرضاءً لمحبوبِهِ.

- لذلكَ فإنَّ هذه المحَبَة تدعو المسلم أن يتخلَّى عن المفاسد بشتى أنواعِها وأشكالِها، وأن يبادر إلى الأمور الصالحة التي يحبُها الله ﷻ.

- وينبغي للمسلم أن يفتِّشَ قلبه ويتَعرَّفَ مقدارَ حُبِّهِ لله ويعلم أن كمالَ الإيمانِ باللهِ بكمال محبتِهِ ويعلم أيضاً أن الأسبابَ الجالبة لمحبة اللهِ كثيرةٌ أهمها عشرة ذكرها أحد العلماء الكبار الأوائل فقال:

أولاً: الإكثارُ من قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ والتَفَهُّمِ لمعانيه وتطبيقُ أوامرِه والابتعادُ عن نواهيهِ.

ثانياً: التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

ثالثاً: دوامُ ذكرِهِ على كلِ حالٍ باللسانِ والقلبِ والعملِ والحالِ، فمن أحب شيئاً أكثرَ من ذِكرِه والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾. [الأحزاب: ٤١]

رابعاً: إيثارُ محابِّه على محابِّكَ عند غَلَبَاتِ الهوى والسَّعيُ إلى محابِّهِ وإنْ صَعُبَ المُرْتَقَى.

خامساً: مطالعةُ القلبِ لأسماءِ اللهِ الحُسنى وصفاته العُلْيا ومُشاهَدَتُها ومَعرفتُها وتقلُّبُهُ في رياضِها.

سادساً: مشاهَدَةُ برِّه وإحسانِهِ وآلائِهِ ونعمِهِ الباطِنة والظاهِرةِ فإنها طريقٌ إلى محبته.

سابعاً: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى تَذَلُّلاً وتواضعاً.

ثامناً: الخلوةُ به وقت النزولِ الإلهي في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ لمناجاتِهِ وتلاوةِ كلامِهِ والوقوفِ بالقلبِ بحضرتِهِ والتأدبِ بأدبِ العبوديةِ بينَ يديه ثم خَتْمُ ذلكَ بالاستغفارِ والتوبةِ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وورد عن النبي ﷺ: «يَنزِلُ ربُنا تباركَ وتعالَى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى الثلثُ الأخيرُ من الليلِ الآخرِ يقولُ: منْ يدعوني فأستجيبَ له؟ من يَسْألني فَأُعطِيه؟ ومن يَستَغْفرني فأغْفِرَ له». (أخرجه البخاري)

تاسعاً: مجالسةُ المحبينَ الصادقِين، والتقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامِهم كما يُنتقى أطايِبُ الثَمَر.

عاشراً: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

(مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية ص١١و١٢)

- جاء في كتاب إحياء علوم الدين، ورَد أنّ الله أوحى إلى بعضِ الصديقين:

(إنَّ لي عباداً يُحبوني وأُحِبهُم، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروني وأذكرُهم، وينظرون إليَّ وأنظرُ إليهم، فإن سلكتَ طريقَهم أحببتُك، وإن عَدَلْتَ عن ذلك مقتُّك، قال: يا رب وما علامتُهم؟ قال: يُراعونَ الظِلالَ بالنهارِ كما يُراعي الراعي غَنَمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطيرُ إلى أوكارِها، فإذا جنَّهم الليلُ واختَلَطَ الظلامُ وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نَصبوا إليَّ أقدامَهم، وافترشوا لي وجوهَهم، وناجَوْني بكلامي وتملقُوا إليَّ بأنعامي فهم بين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحملونَ من أجلي، وَبِسَمْعي ما يَشْكُون من حُبي.

أولُ ما أُعطيهم: أنْ أَقذِفَ من نُوري في قلوبِهم فيَخبرُون عني كما أُخبِرُ عنهم، والثاني: لو كانَت السماواتُ السبعُ والأرضونَ وما فيها في موازينِهم لاستقلَلتُها لهم، والثالث: أُقْبِلُ بوجهي عليهم، أيعلم أحدُهُم ما أُريدُ أن أُعطيه).

(الغزالي: جزء٢ ص٢٠٣)

وينبغي للمحب أن يعلَمَ أنَّ من أحبَّ الله، أحبَّهُ الله سبحانه، ومن ارتدَّ عن دينه وابتعدَ عن محبةِ رَبه، فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحُبُّهم ويحبونَه كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

- ومن أحبَّهُ اللهُ أحبَّهُ جبريلُ والملائكةُ ونالَ القَبولَ والسَعادةَ في الدنيا والآخرة، روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلَ: إن اللهَ يُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ، فيحبُهُ جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهل السماء إنَّ اللهَ يُحبُّ فلاناً فأحبُّوهُ فَيحبُّه أهلُ السماءِ ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرض). (أخرجه البخاري)

- محبة الحق سبحانه وتعالى للعبد هي مدحه له وثناؤه عليه بالجميل مع إحسان مخصوص يلقى اللهُ العبدَ به، وحالة مخصوصة يرقيه إليها.

- أما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة مع تعظيمه، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

كما قال أحد المحبين (بستان الواعظين ورياض السامعين، ابن الجوزي ص٢٦٨):

لله قـــوم أخلـــصوا في حبـــه ... فاختارهم ورضي بهم خـــداما

قوم إذا جـــن الظـــلام علـــيهم ... أبصرت قوماً ســـجداً وقيامـــا

يتلـــذذون بـــذكره في ليلـــهم ... ويكابدون به النـــهار صـــياما

- كذلك ينبغي للمحب أن يعلم أن من أرادَ أن يحبَّهُ اللهُ سعى للاتصافِ بالصفاتِ التي يحبُّها اللهُ والتي ذكرَها في القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

- وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾. [الصف: ٤]

- وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

- وقال ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

- وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

- ويقولُ اللهُ تعالى في الحديث القدسي: «وما تَقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترَضْتُ عليه وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببتُهُ

كُنْتُ سَمعُه الذي يسمَعُ به وبَصَرهُ الذي يُبصرُ به ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورِجْلَهُ التي يمشي بها ولئِنْ سألَني لأُعطينَّهُ ولئِنْ استعاذني لأُعيذَنَّهُ وما ترددْتُ عن شيء أنا فاعلُهُ تَرَدُّدِي عن نفسِ المؤمن يكرهَ الموت وأنا أكرَهُ مُسَاءَتَهُ».

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ)

- يا رب ليس العجبُ من حبي لك وأنا عبد فقير، ولكن العجب من حبك لي يا رب وأنت ملك قدير.

- ويجب على المحب لله ﷻ أن يبتعد عما لا يحبه الله ﷻ من صفات ذكرها في قرآنه مثل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

- وعن داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الله ﷻ أوحى لهم: «أحبّني وأحبّ من يحبني وحَبِّبْني إلى خلقي، قال: يا ربّ أحبّك وأحبّ من يحبّك، فكيف أحبِّبُك إلى خلقك؟ فقال ﷻ: اذكرني لحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل). (قوت القلوب، أبو طالب المكي ص٣١١)

- فالموَفَّقُ كلَّ التوفيقِ مَنْ يسعى لكسبِ محبّة الله له، فهي أعظمُ منزلة ينالها المسلمُ، لأنَّ منها هدايةَ الله وتأييدَه ونصرَه ومعونتَه.

- يا رب ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا إلى حبك.

- كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ يا من أذاقَ أحباءَهُ حلاوة مؤانستِه فقاموا بين يديه مُتهجدين، ويا مَنْ ألبسَ أولياءَهُ ملابسَ هيبتِه فقاموا بحضرتِه مستغفرين.

- كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ، فماذا وَجَدَ من فَقَدك؟ وماذا فَقَدَ مَنْ وجدَك؟، لقد خابَ من رَضِيَ بسواكَ بديلاً، وخَسِرَ من بقي عنك مُتَحَوِّلاً.

- إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ، وكيف أرجو سواكَ وأنتَ ما قطعتَ إحسانَك عني؟ وما بَدَّلت عادَةَ الامتنانِ عليَّ بنعمك.

- يا رب كيف لا أُحِبُّكَ وأنت الذاكرُ قبل الذاكرينَ، وأنت البادئُ بالإحسانِ من قَبْلِ تَوجُّهِ العابدين وأنتَ الجوادُ بالعطاء من قبل طَلَبِ الطالبين، وأنت الوهابُ ثم أنتَ لما وهبتَنا من المستقرضين.

- إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ وأنتَ الحبيبُ؟ وكيف أُخيْبُ وأنتَ أملي؟ أم كيف أهانُ، وعليكَ متَّكَلِي، أم كيف أضَلُّ وأنت دَليلي وكيفَ أمْرَضُ وأنت طبيبي؟

- إلهي كيف لا أُحِبُّكَ وأنتَ الذي نَعَّمْتَني، فلم تجدني شاكراً وابتَليتني فلم تجدْني صابراً، فلا أنت سَلَبْتَ النعمة بتركِ الشُكْرِ ولا أَدَمْتَ الشِّدَةَ بتركِ الصبرِ.

- إلهي أنت الكريمُ وما يكونُ من الكريمِ إلا الكرمُ كما قال الشاعر:

يا جَميل الصُّنْعِ يا مَـنْ كلَّمـا ... دَهَمَ الأمرُ جَـلا مـا دَهَمَـا
يا غيـاثَ المـستغيثينَ، ويـا ... ماضيَ الحُكْمِ إذا مـا حَكَمـا
نَفِّـس الأمـر علينـا سُـرعةً ... إنَّ ذا الأَمْـرَ علينـا عَظُمـا
واستجب منـا دُعانـا كرمـاً ... يا كريمـا أنـت رَبُّ الكرَمـا

يا هنيئاً لكم أيها المحبون لله.

هنيئاً لكَ يا رَسول الله محبتُكَ الله ومحبةُ الله لكَ.

هنيئاً لكم يا صحابةَ رسول الله محبتُكُمُ الله ومحبةُ الله لكم.

هنيئاً لكم يا أحبابَ الله محبَّتُكُم الله ومحبةُ الله لكم.

هنيئاً لك يا رابعةُ محبتك الله ومحبةُ الله لك.

كنت عندما تنتهين من عمل الدُّنيا تتفرغين لعبادةِ الله، كُنْتِ إذا جنَّ الليلُ تقولين: لقد انْشَغَل كلُّ حبيبٍ بحبيبه وأنت حبيبي يا الله.

وحقك ما عبدتُكَ خوفاً من نارك ولا طَمَعاً في جنتِكَ ولكن عَبدتُكَ لأنَّك تستحقُّ العِبَادَةَ.

- (دخل على رابعَة لصٌّ ليسرقَها فجمَع الأمتعةَ وأراد أن يخرجَ من الباب فلم يجد الباب فوضعَ المتاعَ فوجدَ البابَ فحملَ المتاعَ فلم يجدِ البابِ فسمع صوتاً يقول: أَحبَّتْنَا فأحببناها، وانشغلَتْ بنا فلم نَنْشَغِل عنها، أُتركِ المتاعَ ترَ البابَ فترك المتاعَ وخرج وتابَ إلى الله ﷻ). (انظر: محمد عطية خميس المحامي: رابعة العدوية)

فلنستمع إلى مناجاتها لربها لحبيبها في الليل (حلية الأولياء، أبو نعيم):

أُحِبُّكَ حبين، حُبَّ الهوى ... وحباً لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى ... فَشُغْلي بذكرِك عَمَّنْ سِواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فَكَشْفُكَ لي الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

اللهم ارزُقنا هذا الحبَّ، ودُلَّنا عليه، وفرغ قلوبَنا له، ولا تَشْغَلنا عنه، يا كريم.

قال أحمد بن أبي الحواري (صحب الداراني وغيره): (دخلت على أبي سليمان (وهو من الزهاد) وهو يبكي فقلت له: مِمَّ تبكي؟ فقال لي: ويحك يا أحمد، كيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل وهدأت العيون، وخلا كل خليل بخليله، وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاته ورددوا كلامه بأصوات محزونة جرت دموعهم على خدودهم وتقطرت في محاريبهم خوفاً واشتياقاً، فأشرف عليهم الجليل جل جلاله فنظر إليهم فأمدهم محبة وسرورا، فقال لهم: أحبابي والعارفين بي، اشتغلوا بي وألقوا عن قلوبكم ذكر غيري، أبشروا فإن لكم عندي الكرامة والقربة يوم تلقوني، فينادي الله جبريل: يا جبريل، بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلي وأناخ بفنائي، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وبكاءهم، وأرى تقلبهم واجتهادهم، فناد فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء الذي أسمع، وما هذا التضرع الذي أرى منكم؟ هل سمعتم أو

أخبركم عني أحد أن حبيباً يعذب أحباءه؟ أو ما علمتم أني كريم فكيف لا أرضى؟ أيشبه كرمي أن أرد قوماً قصدوني؟ أم كيف أذل قوماً تعززوا بي؟ أم كيف أحجب غداً أقواماً آثروني على جميع خلقي وعلى أنفسهم وتنعموا بذكري؟ أم كيف يشبه رحمتي أو كيف يمكن أن أبيت قوماً تملقوا لي وقوفاً على أقدامهم، وعند البيات أخزوهم؟ أم كيف يجمل بي أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقوني، وكيفما كانوا انقطعوا إلي واستراحوا إلى ذكري وخافوا عذابي وطلبوا القربة عندي، فبي حلفت لأرفعن الوحشة عن قلوبهم، ولأكونن أنيسهم حتى يلقوني، فإذا قدموا إلي أنظر إليهم، ثم لهم عندي ما لا يعلمه غيري. يا أحمد، إن فاتني ما ذكرت لك فيحق لي أن أبكي دماً بعد الدموع. قال أحمد: فأخذت معه بالبكاء، ثم خرجت من عنده وتركته بالباب، فكنت أرى أثر ذلك عليه حتى الممات). (حلية الأولياء، أبو نعيم)

➢ ثانياً - محبة النبي ﷺ:

- هذا النبيُّ ﷺ الذي اختارَه الله سبحانَه وتعالى ليكونَ خاتَمَ الأنبياءِ والرسلِ ولتكونَ رسالتُهُ خاتَمَةَ الرسالاتِ السماويةِ.

- إنَّهُ الرسولُ الكريمُ الرؤوفُ الرحيمُ الذي أخرجَنا اللهُ به من الظلماتِ إلى النورِ ومن الضلالَة إلى الهُدى ومن الجَهْلِ إلى العلمِ ومن الضَّعْفِ إلى القوةِ ومن الذُّلِ إلى الرفعةِ ومن الفُرقَةِ إلى الوَحدَةِ ومن النزاعِ والخصامِ إلى المحبةِ والوئامِ، حتى كُنا بهديه وتوجيهِهِ خيرَ أُمةٍ أُخرِجَت للناس.

- فليسَ بعدَ اللهِ تعالى أحدٌ أَمَنَّ علينا من رسولِنا ومحبتُهُ في الحقيقةِ شُعْبَةٌ من محبَّةِ اللهِ ﷻ. لا يمكنُ الفصلُ بينَهما فمن أحَبَّ اللهَ فلا بد له من محبةِ رسولِهِ ومن أحبَّ الرسولَ فلا بدَّ لهُ من محبةِ اللهِ، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

- والآياتُ التي تَتَحَدَّثُ عن محبةِ اللهِ التي تَستَلزِمُ طاعَتَهُ تُؤكِّدُ على محبةِ رسولِهِ وكذلك أحاديثُ النبي ﷺ في هذا الأمرِ.

- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (من أطاعني فقد أطاعَ الله ومن يَعْصِني فقد عصى الله). (أخرجه مسلم في صحيحه)

- وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

- وقد قال النبي ﷺ: «أحبُّوا الله لما يَغْذُوكُم به من نِعمِه، وأحبُّوني لِحُبِّ اللهِ إيَّايَ، وأحبوا أهلَ بيتي لحبِّي». (أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما)

- لذا فإن الإنسانَ لا يكونُ مُؤمناً حتى يُحِبَّ رسولَ اللهِ ﷺ بل حتى يكون حُبُّهُ أحبَّ إليه من كلِّ شيء.

- عن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليه من ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين». (أخرجه مسلم)

- ويروى أن النبيَّ ﷺ كانَ آخذاً بيدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ فقالَ له عمرُ يا رسولَ الله: (لأنتَ أحَبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلا من نفسي)، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نَفْسي بيدِهِ حتى أكونَ أَحَبَّ إليكَ من نَفْسِكَ»، فقال له عمرُ: (فإنه الآنَ والله لأنت أحبُّ إلي من نفسي) فقال النبيُّ ﷺ: «الآن يا عمرُ» (أخرجه البخاري). يعني: الآن كَمُلَ إيمانُك يا عمر.

- هذه المحبةُ لرسولِ اللهِ ﷺ تَظْهَرُ في كلِّ مؤمنٍ آمنَ بالله ورسولِهِ تظهر في أعمالِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ، تظهرُ في دفاعِهِ عن دينِهِ ومعتقدِهِ، تَظهَرُ في العملِ بأحاديثِ النبي ﷺ والسيرِ على سنته، تظهر في تربيته لأولاده وأهله عملاً بقول النبي ﷺ: «أَدِّبُوا أولادَكُمْ على ثلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيِّكُمْ وحُبِّ آلِ بيتِهِ وقراءة القُرآنِ».

(أخرجه الديلمي وابن نجار في جامع الأحاديث)

- وَتَظْهَرُ في الشوقِ إلى زيارتِه والوقوفِ أمامَ حُجرتِه والسلامِ عليه وتظهرُ في حبِّ رؤيتِه في الدنيا وشفاعتِه في الآخرةِ، وقد ظَهَرَتْ هذه المحبةُ واضحةً عندما قامَ أحدُ الشياطينِ من الإنْسِ بتشويهِ صورةِ النبي ﷺ فهبَّ جميعُ المسلمين وفي جميع بقاعِ الأرض، هَبَّ مليارٌ ونصفٌ باستنكارِ هذا الفعلِ الشنيعِ وإظهارِ حُبِّهم لنبيِّهم ودفاعِهم عنه ﷺ فقامَتْ الدنيا و لم تَقْعُدْ.

ولنْ تَقْعُدَ حتى يعلَم العالَمُ كلُّهُ أجمَع مقدارَ حُبِّنا لنبيِّنا وفدائنا له بكلِّ ما نملكُ.

- كيف لا نكونُ ممَّن أَحَبَّ النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ يشهَدُ بمحبتِنا له ويُخْبِرُ ﷺ عن ذَلك بأنَّ أحَدنا يتمنى رؤيَتُه بكلِّ ما يملكُ.

- عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بَعْدِيَ يودُّ أحدُهُم لو رآني بأهلِه وماله». (أخرجه مسلم)

- وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ أتى المقبَرة فقال: «السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقونَ وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخوانَنَا»، قالوا: (أَوَ لسنا إخوانَكَ يا رسولَ الله)، قال: «أنتم أصحابي وإخوانُنا الذين لم يأتوا بَعْدُ»، فقالوا: (كيف تَعْرِفُ مَن لم يأتِ بَعْدُ مِنْ أُمَتِكَ يا رسول الله)، فقال: «أرأيْتَ لو أنَّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَيْ خيلٍ دهمٍ بهمٍ (السواد الكامل) ألا يعرِفُ خيلَه» قالوا: (بلى يا رسول الله)، قال: «فإنهم يأتونَ غُرّاً محجَّلين (بياضٌ في جبهة الفرس فوقَ الدرهم) من الوضوءِ». (أخرجه مسلم)

- ولو سألَنا سائلٌ لماذا تحبون رسول اللهِ هذه المحبةَ الشَديدة فإننا نقولُ له بلسانٍ واحد: إن محبتنا لرسول الله ﷺ لها كثير من الدواعي والموجبات نذكر منها:

أولاً: اللهُ ﷻ أوجبَ محبتَهُ وطاعتَهُ وقرنها بمحبتِه سبحانَهُ وطاعتِه وقد ذكرت من قبلُ من الآياتِ والأحاديثِ ما يَدلُّ على ذلك.

ثانياً: لأن الله تعالى أحبَّه واختارَهُ من بين خلقِهِ واصطفاهُ لرسالتِهِ الخاتمة وفضَّلَهُ على جميع مخلوقاتِه.

وأفضلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ ... نبيُّنا فَحُلْ عن الشقَاقِ
محمدٌ بشرٌ وليسَ كالبشر ... بل هو ياقوتَةٌ والناسُ كالحَجَرِ
وليسِ في الخلقِ من نِدٌّ يماثِلُهُ ... فالأنبياءُ نجومٌ وهو كالقمرِ

ثالثاً: لرأفتِهِ ورحمتِهِ بأمتِهِ وحرصِهِ على هدايتِها وإنقاذِها من النارِ.

- قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

- عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله ﷻ في إبراهيمَ عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفَع يديه وقال: «اللَّهم أمتي، أمتي وبكَى»، فقال اللهُ ﷻ: (يا جبريلُ اذهبْ إلى محمد وربُّكَ أعلَمُ فَسَلْهُ ما يُبكيك؟)، فأتاه جبريل عليه السلام فسألَهُ: (فأخبَرهُ رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلمُ)، فقال الله ﷻ: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنُرضيك في أمتِك ولا نسوءُكَ).

(أخرجه مسلم)

وأخباره ﷺ في رحمته بأمته ورأفته أكثر من أن تحصى.

رابعاً: لأنَّ دينَهُ خيُر دينٍ وشريعتُهُ وتعاليمُهُ وتوجيهاته أحسنُ الشرائعِ.

خامساً: لعطْفِه وشَفَقَتِه على أمتِه فمن عطفِه ﷺ أنَّهُ ادَّخَرَ دعوتَهُ إلى يومِ القيامةِ لتكونَ شفاعَةً لأمته في أهم الأوقات وأحرَجِها.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ

فَتَعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دَعوَتَهُ وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ فهي نائلةٌ إن شاءَ اللهُ مَنْ ماتَ من أمتي لا يُشرِكُ باللهِ شيئاً». (أخرجه مسلم)

- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: (لما رأيتُ منَ النبيِّ ﷺ طيبَ نفسٍ قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ لي قال: اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّمَ من ذنبها وما تأخَّرَ وما أسرَّتْ وما أعلَنَتْ، فضَحِكَتْ عائشةُ رضي الله عنها حتى سَقَطَ رأسُها في حُجرِها من الضَّحك فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ أيَسُرُّكِ دعائي فقالَتْ: ومالي لا يَسُرُّني دعاؤُك فقالَ ﷺ: واللهِ إنها لدعوتي لأمتي في كلِّ صلاتي). (أخرجه البزار في مسنده)

- ينبغي للمسلم أن يتعلَّمَ الحبَّ لرسولِ الله ﷺ من الصحابةِ الكرامِ، هذا الحبُّ الذي عبَّرَ عنه سيدُنا عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ عندما سُئِلَ كيفَ كان حبُّكم لرسولِ الله ﷺ فقال: كان واللهِ أحبَّ إلينا من أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمهاتِنا ومن الماء البارد على الظَّمَأ). (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي ص١٨٨)

- تحدَّثَ رجالٌ على عَهْدِ عُمَر ﷺ، فكأنَّهُم فضَّلوهُ على أبي بكر ﷺ، قال فبلغَ ذلك عُمرَ ﷺ، فقال: (واللهِ لليلةٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عمرَ، وليومٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عُمَر، لَقَد خرجَ رسولُ الله ﷺ لينطلقَ إلى الغارِ ومعَهُ أبو بكر ﷺ فجَعَلَ يمشي ساعةً بين يديه وساعةً خَلْفَهُ حتَّى فَطِنَ له رسولُ الله ﷺ فقال: يا أبا بكر: مالكَ تمشي ساعةً بين يديَّ وساعةً خلفي؟ فقالَ: يا رسولَ الله، أذكُرُ الطَّلَبَ فأمشي خلفَكَ ثم أذكُرُ الرَّصْدَ فأمشي بين يديك فقال: يا أبا بكر، لو كانَ شيءٌ أحبَبْتَ أن يكونَ بكَ دوني؟ قال: نعم، والذي بعثَكَ بالحقِّ ما كانَتْ لتكونَ من مُلِمَّةٍ إلاَّ أن تكونَ بي دونَك فلما انتهيا إلى الغارِ، قالَ أبو بكر: مكانَكَ يا رسولَ الله حتى أستبرئَ لكَ الغارَ فدخلَ واستَبْرَأَهُ، حتى إذا كان في أعلاه ذَكَرَ أنه لم يستبرئ الجحرة (جمع جُحر وهو الحفرة التي تأوي إليها الهوامُّ وصغار الحيوان)، فقال: مكانكَ يا رسولَ الله حتى استبرئَ الجحرة فدخل واستبرأ ثم قال: انزلْ يا رسولَ الله، فنزل، فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خيرٌ من آلِ عمر). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- هذا حُبُّ الرجال فكيفَ كان حُبُّ النساءِ للرسول ﷺ؟

- خرجَتِ امرأةٌ من الأنصارِ عندَ عودةِ المسلمينَ من معركَةِ أُحُدٍ وقد قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجُها في تلك المعركة وكانوا ممن شهدوا القتالَ مع رسولِ الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ، قالوا: خيراً هو بحمد كما تحبين، قالت: (أَرُونيهِ حتى أنظرَ إليه)، فلما رَأَتْهُ قالَتْ: (كلُّ مصيبةٍ بَعدَكَ جَلَلٌ يا رسولَ اللهِ).

(أخرجه البيهقي في دلائل النبوة)

- وينبغي للمحب أن يعلم أن الحُبَّ هو بدايةُ الإيمانِ وهو تمامُهُ وغايتُهُ لأنه انعطافُ النفسِ إلى المحبوبِ وما تزالُ النفسُ تنعطِفُ حتى لا تكادُ تَهفو إلا إلى ما يُشير بهِ المحبوبُ، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

(أخرجه البخاري في رفع اليدين عن عبد الله بن عمرو)

- ومن أحبَّ رسولَ اللهِ ﷺ فعليه أن يُقيمَ على حُبِّهِ هذا دليلاً ودليلُهُ العملُ والاتِّباعُ لهديهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

لأن حبَّكَ للنبي ﷺ يقتضي اتباعَك له في أقوالِهِ وأفعالِهِ وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ وفي كل أحوالِهِ.

- عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قالَ: «ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّني».

(أخرجه الترمذي في سننه)

- وإذا أردْتَ أن تُحْشَرَ معه ﷺ فعليكَ أن تحبَّه محبةً صادقةً، فقد روى أنسٌ ابن مالك ﷺ قالَ جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ يا رسولَ اللهِ متى الساعةُ؟ قالَ: وما أعدَدْتَ للساعةِ قال: حبَّ اللهِ ورسولِهِ قال: فإنَّكَ مع من أحبَبْتَ قال: أنسٌ فما فَرِحْنَا بعدَ الإسلامِ فرحاً أشدَّ من قولِ النبيِّ ﷺ فإنكَ مع من أحبَبْتَ قال أنسٌ فأنا

أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ وأبا بكرٍ وعُمَرَ فأرجو أن أكونَ معَهم وإن لم أَعْمَلْ بأعمالِهم).

(أخرجه مسلم)

- وعن عبد الله ﷺ قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحب قوماً ولما يلحق بهم قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». (أخرجه مسلم)

أي في الآخرةِ بل قبلَ الموتِ وعندَ الموتِ وبعد الموتِ، معهم حباً وأنساً ونعيماً فهنيئاً لكم يا أحبابَ رسولِ الله ﷺ.

- وعن عبدِ اللهِ بن زيدٍ أنه قال: (يا رسولَ اللهِ إذا مُتَّ ومُتنا كنْتَ في عليينَ لا نراك ولا نجتَمِعُ بكَ، وَذَكَر حُزنَه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]). (رواه القرطبي في تفسيره)

➢ ثالثاً - محبة الصالحين:

- ينبغي لِمن أحب الله ﷻ وأحب رسوله ﷺ أن يحب الصالحين.

- قال رسول الله ﷺ: «أوثقُ عرى الإيمان أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ».

(أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

- الصالحونَ الذين أُمِرنَا بحبِّهِمْ، ومجاورتِهم، أصحابُ المكانةِ العظيمةِ التي أعطاهم الله إياها.

يقرأُ المسلمُ في كلِّ ركعةٍ من رَكَعَاتِ الصلاةِ بسورةِ الفاتحةِ ويقولُ فيها:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة ٦- ٧].

- فالمؤمنُ يطلُبُ من اللهِ، أن يهديَهُ الصراطَ المستقيمَ، الصراطَ الذي اتَّبَعَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليهم وذكرَهم في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

[النساء: ٦٩]

- فالدرجةُ الأولى لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم، درجةُ الأنبياءِ ثم الصِّدِّيقينَ ثم الشهداءِ ثم الصالحينَ.

- فالصالحون هم مِنَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم، وممن قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

- والصالحون هم الذين ذكرَهم اللهُ ﷻ في كثيرٍ من آياتِهِ وهو يتحدَّثُ عن المؤمنينَ الصادقين كما في قوله سبحانَهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

- ومن أعمال هؤلاء الصالحين التي مدحهم سبحانه بها ما ذكره في قولِهِ:

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤].

- وقد وصفَ المحاسبيُّ (من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات) هؤلاءِ الصالحينَ فقالَ: (كانوا للمَسْكَنةِ مُحبِّينَ، ومن خَوفِ الفَقْرِ آمنينَ، وباللهِ تعالى في أرزاقِهم واثقينَ، وبمقاديرِ اللهِ عزَّ وجلَّ مسرورينَ، وفي البلاءِ راضينَ، وفي الرخاءِ شاكرينَ، وفي الضَّراءِ صابرينَ، وفي السَّراءِ حامدينَ، وكانوا للهِ متواضعينَ، وعلى أنفسِهم مُؤْثِرِيْنَ، وعن حبِّ العُلُوِّ والتكابُرِ ورعينَ، وكانوا إذا أقبلَتْ عليهم الدنيا حَزِنوا، وإذا أقبلَ عليهم الفقرُ قالوا: مرحباً بشعارِ الصالحينَ). (انظر الوصايا، المحاسبي)

- إذاً هؤلاءِ الصالحونَ هم الذين آمنوا بربِّهم إيماناً يقينياً وأحبُّوهُ محبةً لا تَبْلُغُها محبةٌ، وأحبُّوا نبيَّهُ المصطفى ﷺ وتمسَّكوا بتعاليمِ القرآنِ الكريمِ وطبَّقوا سُنَّةَ نَبيه، وعملُوا الأعمالَ الصالحةَ التي أمرَ اللهُ ﷻ بها، وأرشد إليها النبيُّ ﷺ وانْتَهَوا عما نهى عنه اللهُ ورسولُهُ عملاً بقولِ النبيِّ ﷺ: «تركْتُ فيكم أمرينِ لن تَضِلُّوا ما تمسَّكتُمْ بهما كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّه». (أخرجه الإمام مالك في الموطأ)

- ثم تَتَبَّعُوا سِيَرَ الصالحينَ وعملُوا بأعمالِهم فسارُوا سَيْرَهُمْ، ونَهَجُوا نهجَهم، تطبيقاً وسلوكاً.

هؤلاءِ الصالحونَ لهم المكانةُ العاليةُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعندَ الناسِ، ولقد ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه المكانةَ العاليةَ لهم في قرآنِهِ الكريمِ، في آياتٍ تجاوزتِ السبعين، نذكُرُ منها قولَهُ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

- وقالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

- وقال أيضاً سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

- ويكفيهم فخراً أنهم الوارثون الحقيقيون لهذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- ويكفيهم فخراً أنَّ مِنْ فرائضِ الصلاةِ أن يقرأَ المصلِّي التشهُّدَ في كل صلاةٍ ويقولَ فيه بعدَ أن يُثنيَ على اللهِ سبحانَهُ وتعالى، ويصلِّي على نبيِّهﷺ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ.

- ما أعظمَ أن نتحدَّثَ عن هؤلاءِ الصالحينَ، وما أَجَلَّ أن نُحِبَّهُم، وأن نسعى إلى أن نكونَ منهم أو معَهم، قالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ (محدث الحرم المكي من شيوخ البخاري):

(عندَ ذكرِ الصالحينَ تَنْزِلُ الرحمة) (صفوة الصفوة، ابن الجوزي).

- وقال محمدُ بنُ يونسَ (إمام وقته في فقه الشافعية، من أئمة الحديث):

(ما رأيْتُ للقلبِ أنفعَ من ذِكْرِ الصالحينَ). (صفوة الصفوة، ابن الجوزي)

- وقد كانَ الأئمةُ الكبارُ من السلفِ إذا ذُكِرَ الصالحون في مجلسٍ جلسوا مُتأدِّبينَ رعايةً لمقَامِهم، ولو كانوا غائبينَ فلا أقلَّ مِنْ أنْ نترحَّمَ عليهم -نحن الخَلَفَ- إن فاتَنا التأدُّبُ عندَ ذكرِهِمْ.

- قال الإمامُ المحدِّثُ الفاضلُ أبو زرعةَ (من أئمة زمانه في الحديث ورجاله، من أهل دمشق): (كنْتُ عندَ أحمدَ بنِ حنبل فَذُكِرَ إبراهيمُ بنُ طهمانَ- وهو من العلماءِ الفضلاءِ- وكان مُتَّكِئا من عِلَّةٍ فجلَسَ وقالَ لا ينبغي أنْ يُذْكَرَ الصالحون فَيُتَّكَأ). (تذكرة الحفاظ)

- هذا وإنَّ مجالسةَ الصالحينَ، أو سماعَ حديثِهم، أو تلقيَ الحديثِ عنهم، أو قراءةَ مناقبِهم وفضائلِهم، لهو مما تطمئنُّ به القلوبُ، وتنشرحُ لهُ الصدورُ، وتَصْلُحُ به الأخلاقُ والأعمالُ.

- وينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يعلمَ أن أولَ الصالحينَ هم الأنبياءُ والمرسلون، وقد بيَّنَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى ذلك في كثيرٍ من الآيات، وخاصةً في سورة الأنبياءِ، ثم أَجْمَلَ الحديثَ عنهم فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. [الأنبياء: ٨٦]

- لذلك وَجَبَ علينا محبةُ جميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ دون تفريقٍ بينَ أحدٍ منهم.

- ولقد أجمعَ العلماءُ أنَّ إمامَ الأنبياءِ الصالحينَ هو نبيُّنا المصطفى ﷺ لذلك كانت محبتُنا له هي تأتي وتَلِي محبةَ اللهِ سبحانَه وتعالى.

- ويأتي بعدَها محبةُ جميعِ الصحابةِ الكرامِ فهم أفضلُ الصالحين لأنهم رَأَوْا النبيَّ ﷺ وصاحبوه، واتبعوه أحسنَ اتِّباعٍ، واكتسبوا منه العلمَ الوفيرَ، وطبَّقُوه خيرَ تطبيقٍ وشَهِدوا نزولَ الوحيِ، بالقرآن الكريم، والتشريع، فكانوا كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

- هؤلاءِ الصحابةُ الذين ذكرَ ابنُ عباسٍ أنهم المقصودون بقوله تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

فقال هم: أصحابُ محمدٍ اصطفاهم اللهُ لنبيِّه ﷺ.

- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المزنيِّ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غَرَضا من بعدي فمنْ أَحَبَّهُمْ فبِحُبِّي أحبَّهُمْ ومن أبغضَهُم فبِبُغْضِي أبغضَهُمْ ومن آذاهُم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى اللهَ ومن آذى اللهَ يُوشِكُ أن يأخذَهُ». (أخرجه البيهقي في شعبه)

- قال أبو زرعةَ الرازيُّ (من حفاظ الحديث، وجالس أحمد بن حنبل) رحمَهُ الله: تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ ومن رآه وسمعَ منه زيادةٌ على مئة ألفِ إنسانٍ من رجلٍ وامرأةٍ، كلُّهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية، ومن المعروف أنَّ بعضَ هؤلاء من السابقينَ إلى الإسلامِ، وبعضَهُمْ من المهاجرينَ، وهناكَ الأنصارُ، وهناكَ الأطفالُ الذين وُلِدُوا في عهدِهِ ورَأَوْهُ ﷺ، وهناكَ الأعرابُ وأهلُ الباديةِ الذينَ حضروا حِجَّةَ الوداعِ وهم كثيرون جداً.

- قالَ المحدِّثُ ابنُ حَجَرٍ رحمَهُ اللهُ: ومعَ ذلك فلم يَحْصُلْ لنا من ذلكَ جميعاً الوقوفُ على العُشْرِ من أسامي الصحابةِ حيثُ لم تُضبَطْ أسماؤُهم لكثرةِ من ماتَ في خلافةِ أبي بكرٍ في حروبِ الردةِ، والفتوحاتِ، ثم من ماتَ في خلافةِ عمرَ في الفتوحاتِ والطاعونِ.

- وذهبَ جمهورُ المسلمينَ إلى أنَّ أفضلَ الصحابةِ على الإطلاقِ: أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ثم تمامُ العشرةِ المبشرينِ بالجنةِ، وهم: أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، وطلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، والزبيرُ بنُ العوامِ، وسعيدُ بنُ زيدٍ، وسَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ. وهؤلاءِ جميعاً من الذينَ سَبَقُوا في الإيمانِ وتحمَّلُوا المشاقَّ في الدفاعِ عن الإسلامِ، وصَدَقُوا اللهَ ورسولَهُ، ثم أهلُ بدرٍ، ثم أهلُ أُحُدٍ، ثم أهلُ بيعةِ الرضوانِ، ثم بقيةُ الصحابةِ الكرامِ.

- ولقد أرشدَنا النبيُّ ﷺ إلى مكانةِ هؤلاءِ الصحابةِ بقولِه: «فعليكم بسُنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ عَضُّوْا عليها بالنواجذِ». (أخرجه الترمذي)

- عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﷺ قال: (من كانَ مُسْتَنًّا فلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قدْ ماتَ أولئكَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا خيرَ هذه الأمةِ أَبَرَّها قلوبا وأعمقَها علْمَاً وأقلَّها تكلُّفا قومٌ اختارَهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّه ﷺ ونَقْلِ دينِه فتشبَّهوا بأخلاقِهم وطرائقِهم فهم أصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا على الهدى المستقيم). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﷺ: (أنتم أكثرُ صلاةً وأكثرُ صياماً من أصحابِ محمدٍ ﷺ وهم كانوا خيراً منكم قالوا: وبِمَ؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدنيا وأرغَبَ منكم في الآخرةِ). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- ويأتي بعدَ الصحابةِ في الفضلِ والصلاحِ، التابعونَ لهم، ثُمَّ مَنْ تَبِعَهُمْ كما قالَ ﷺ: «خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

(أخرجه مسلم)

- ثم يأتي من بعدهِم في الصلاحِ والخيريةِ من تَبِعَهُمْ إلى يوم الدينِ من أهلِ العلمِ والذكرِ والتقوى والصلاحِ.

- لذلك ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يُحِبَّ كلَّ أولئك الصالحينَ فمحبتُهُمْ واجبةٌ.
وفي هذا يقولُ سيدنا عمرُ بنُ الخطاب ﷺ: (لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحْبَبْتُ البقاءَ فيها، لولا أنْ أحْمِلَ أو أُجَهِّزَ جيشاً في سبيلِ اللهِ، وثانيها، لولا مكابدةُ هذا الليلِ - قيامُ الليلِ والعبادةُ فيه لتحصيلِ مافيه من جزيلِ الثوابِ-، وثالثها، لولا مجالسةُ أقوامٍ يَنْتَقُوْنَ أطايب الكلامِ كما يُنتقى أطايبُ التمرِ).

(مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية ص١٢٠)

- ولقد كان كبار الصالحين يَسْعَوْنَ للاجتماعِ بالصالحينَ ورؤيتِهِمْ، والاستماعِ إليهِم ليزدادُوا صلاحاً وحباً لله ورسولِهِ وأهلِ الصلاحِ، وكانَ لذلك تأثيرٌ كبيرٌ في تعميق إيمانِهِمْ وحبِّهم وفي صلاحِ أعمالِهِم، وفي ذلك يقولُ الشافعيُّ (مجمع الحكم والأمثال، باب التقوى، أحمد قبش):

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلّي أن أنالَ بِهِم شَفاعَهْ
وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي ... وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَهْ

- قالَ أشعثُ بنُ عبدِ اللهِ (من رواة الحديث روى عن أنس بن مالك ﷺ): (كنا إذا دخلْنا على الحسنِ البصريِّ -وهو من التابعين- خرجْنا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئاً). (حلية الأولياء، أبو نعيم)

- وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ (من حفاظ الحديث الثقات، من أصحاب الحسن البصري): (كانَ الرجلُ إذا نظرَ إلى الحسنِ البصريِّ انتفعَ به وإن لم يرَ عَملَهُ و لم يَسْمَعْ كلامَهُ). (البداية والنهاية، ابن كثير)

ودليل ذلك جوابُ النبيِّ ﷺ وقد سُئلَ أيُّ جلسائنا خيرٌ، فقالَ: مَنْ ذَكَّرَكُمْ اللهَ رؤيتُهُ، وزادَ في علمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وذكَّرَكُمْ الآخرةَ عملُهُ.

(أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس)

- وعن أنسٍ ﷺ قالَ: قالَ ﷺ: «إنَّ من الناسِ مفاتيحَ لذكْرِ اللهِ، إذا رُؤُوْا ذُكِرَ اللهُ». (أخرجه ابن حبان)

فمن الواجبِ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُحِبَّ هؤلاءِ الصالحينَ، فمحبتُهُمْ سعادةٌ في الدنيا والآخرةِ.

- عن معاذِ بنِ جبلٍ ﷺ قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «قالَ اللهُ ﷻ: المتحابُّون في جَلالي لهم منابرُ مِنْ نورٍ يَغْبِطُهُمُ النبيونَ والشهداءُ».

(أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح)

- يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: (وجبَتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فِيَّ والمتجالسين فِيَّ والمتزاورِيْنَ فِيَّ، والمتباذلِيْنَ فِيَّ). (أخرجه مالك في الموطأ بإسناد صحيح)

اللهم اجعلْنا منهم ومِنَ الصالحين الذين تحبُّهم، واجعلْنا من أحبابِهِمْ.

- **أخيراً**: ينبغي لكل منّا أن يحبّ الصالحينَ، وأن يسعى لأَنْ يكونَ معَهُمْ ومنهم، والطريق للوصولِ إلى ذلك، هو الإيمانُ الحقُّ باللهِ تعالى، والأعمالُ الصالحةُ التي يكون فيها القربى منه جلَّ وعلا، فينطبق علينا قولُ ربِّنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ونردِّدُ قولَ نبيِّ اللهِ سليمانَ الذي وردَ في القرآن الكريم: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

- وعندَ ذلك ينطبقُ علينا قولُ ربِّنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

- ومعَ سعْينا لذلك تعالَوْا نردِّد الدعاءَ وهو مما عَلَّمَنا اللهُ في قرآنِه:

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

- وينبغي للمحب للصالحين أن يردد قولَهُ سبحانَهُ:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣].

- وما أجمل أن نردد دعاء داود عليه السلام: (اللَّهُمَّ إني أسألك حبَّكَ وحبَّ من يُحِبُكَ والعملَ الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حُبَّك أحبَّ إلي من نفسي وأهلي من الماء البارد). (أخرجه الترمذي والحاكم)

اللهم اجعلنا من الصالحين، واجمعنا معهم، وارزقنا محبتهم.

رابعاً- مقام التقوى

- مقام التقوى مقام عظيم فقد ذكر الله التقوى في قرآنه مع اشتقاقاتها (٢٦٩ مرة) وإذا اجتمعت التقوى مع الإيمان تحققت الولاية لله ﷻ، قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

- والتقوى كلمة جامعة شاملة وهي -وإن قل لفظها- كثيرة المعنى شاملة لخيري الدارين.

- **والتقوى لغة:** من الاتقاء، وهو طلب السلامة بما يحجز عن المخافة.

- **والتقوى معناها في الأصل:** جعل النفس في وقاية مما تخاف.

- **واتقى الله:** خاف عقابه فتجنب ما يكره.

- **وتقوى الله:** خشيته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

- **والتقوى في اصطلاح الشرع والعقل:** حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للملامة أو العذاب، وذلك بترك أسباب السخط والعقوبة، وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب.

- **وأصل التقوى:** اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك ترك الفضلات، ومع كل ذلك الالتزام بالفرائض والواجبات، والأوامر والطاعات.

- وقد عرف الصحابة والتابعون، والعلماء التقوى بتعاريف كثيرة منها:

- قال رجل لأبي هريرة ﷺ: ما التقوى؟ قال: «أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». (البيهقي في الزهد الكبير)

أيْ أنَّ التقوى تشميرٌ لأداءِ الطاعاتِ وحَذَرٌ من المعاصي والسيئاتِ.

نعم التقوى: إحساسٌ في الضميرِ، وخشيةٌ مستمرةٌ، وتشميرٌ واجتهادٌ، واستعدادٌ ليوم المعادِ.

- التقيُّ يعملُ بقولِ سيدِنا عليٍّ ﷺ: (التقوى هي: الخوفُ من الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعة بالقليلِ، والاستعدادُ ليومِ الرحيلِ). (الأربعين النووية، النووي)

- حقيقةُ المتقي ليسَتْ بالمظاهرِ وإنما هيَ بالحقائقِ كما قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز ﷺ: (ليس تقوى اللهِ بصيامِ النهارِ ولا بقيامِ الليلِ والتخليطِ فيما بين ذلك، ولكنَّ تقوى اللهِ تركُ ما حرَّمَ اللهُ، وأداءُ ما افترضَ اللهُ، فَمَنْ رُزِقَ بعدَ ذلك خيراً فهو خيرٌ إلى خيرٍ). (البيهقي في الزهد الكبير)

- حقيقةُ المتقي أن يكون ظاهرُهُ وباطنُهُ سواءً كما قيلَ: لا يَبْلُغُ الرجلُ سَنَامَ التقوى إلا أن يكونَ بحيث لو جُعِلَ ما في قلبِهِ في طَبَقٍ، فَطِيْفَ به في السوقِ لم يَسْتَحِ منه.

- وهذا يتفقُ معَ ما قالَهُ أهلُ التقوى: (أنْ لا يراكَ اللهُ حيثُ نهاك، وأن لا يَفْقِدَكَ حيثُ أمرَكَ). (تفسير الآلوسي وفي البداية والنهاية، ابن كثير)

- ومعَ قولِهِمْ: التقوى اتقاءُ عذابِ اللهِ بصالحِ العملِ، والخشيةُ منه في السرِّ والعَلَنِ.

- وفي هذا يقولُ ابن المعتزِ (محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني جزء١ ص٤٨٩):

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقَى

واصنعْ كماشٍ فوقَ أر ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرى

لا تَحقِرَنَّ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحَصَى

- التقيُّ فرِحٌ بأنه أصبح من أولياءِ اللهِ الذينَ يتولاهم اللهُ بفضلِهِ وعنايتِهِ لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

- التقيُّ فرِحٌ بما سينالُهُ من العِلْمِ اللدنيِّ والتوفيقِ الإلهيِّ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

- التقيُّ في حالةِ سرورٍ دائمٍ لأنه يَشْعُرُ بأنَّ اللهَ معَهُ بالعَوْنِ والتأييدِ والنصرِ يردِّدُ دائماً قولَهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

- فَمَنْ كانَ اللهُ معَهُ، كان معَهُ كلُّ شيءٍ، ومنْ لم يكنِ اللهُ معَهُ فَقَدَ كلَّ شيءٍ، المتقي يُخاطِبُ اللهَ بقولِهِ: إلهي ماذا فَقَدَ من وجدَكَ! إلهي ماذا وجَدَ من فَقَدَكَ!، المتقي يفرحُ بحبِّ اللهِ له لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

- المتقي واثقٌ بقبولِ اللهِ أعمالَهُ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

- المتقي مطمئنٌ بتكفيرِ اللهِ لسيئاتِهِ وتعظيمِ أجرِهِ لأنه يقرأُ دائما قولَهُ سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

- المتقي يسيرُ واثقَ الخُطا في هذه الحياةِ، لأنه يعرِفُ أنَّ اللهَ سيرشِدُهُ إلى الطريقِ الصحيحِ المستقيمِ لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

- المتقي لا يخافُ من الأزماتِ والعقباتِ التي تواجهُهُ ولا من أن تُغْلَقَ أبوابُ الأرزاقِ في وجهِهِ لأنه على ثقةٍ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

- المتقي فرحٌ بكلِّ ما ينالُهُ في الدنيا وهو على يقينٍ بتكريمِ اللهِ له وتفضُّلِهِ عليه

في الآخرةِ لأن تقواه في الدنيا سببٌ لنجاتِه من النارِ في الآخرةِ، قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١- ٧٢].

- والتقي يَأْمُلُ أن يصيرَ إلى المكانةِ العاليةِ والمنزلةِ الرفيعةِ في الجنة التي وعَدَهُ الله إياها بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥].

- وقوله سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

- وقوله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

- وقوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

- هذه نتائجُ التقوى التي وصّانا بها الله ﷻ وأمرنا بملازمتها فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

[آل عمران: ١٠٢]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

- وقال جل جلاله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

- كذلك النبي ﷺ كان يكثر من الوصية بالتقوى، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ يا نبيَّ اللهِ أوصني فقال: «عليكَ بتقوى اللهِ فإنها جِماعُ كلِّ خيرٍ». (أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الصغير)

- وعن أبي ذرٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما أن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ:
«اتقِ اللهَ حيثما كنْتَ وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ».
(أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)

- ولقد كانَ كثيرٌ من الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم يسألون رسولَ الله ﷺ الوصيةَ فكانَ جلُّ وصاياه لهم تقوى الله ﷻ. قالَ أبو ذرٍ: قلْتُ يا رسول الله أَوْصِنِي قالَ رسولُ الله ﷺ: «أوصيْكَ بتقوى اللهِ فإنها رأسُ الأَمْرِ كلِّه». (أخرجه ابن حبان)

- ولقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ مكانةَ المتقين فقال: «إنَّ أولى الناسِ بي المتقونَ مَنْ كانوا وحيْثُ كانوا». (أخرجه أحمد وهو حديث صحيح)

- وعلَّمَنا النبيُّ ﷺ أن نطلُبَ التقوى في دعائنا فقالَ: «اللهمَّ إني أسألُكَ الهُدَى والتُّقَى والعفافَ والغنى». (أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ)

- ولم يَزَل الصحابةُ والتابعونَ والسلفُ الصالحُ جميعاً يتواصَوْن بالتقوى في كلِّ أعمالِهِمْ وأحوالهم وأمورِهِمْ، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ كان يقول في أكثر خطبه: (أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله....). (أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم)

- ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر ﷺ دعاه ووصاه بوصية، وأول ما قال له: (اتقِ الله يا عمر). (أخرجه ابن أبي شيبة وابن المبارك وأبو نعيم)

- وكتب سيدنا عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكر زاده، ولتكن التقوى نصب عينيك وعماد عملك وجلاء قلبك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسبة له، (يعني لا أجر لمن لم يحتسب ثواب عمله عند الله ﷻ) ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ (الثوب البالي) له).

(أخرجه ابن أبي الدنيا في التقوى في جامع الأحاديث)

- قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل). (أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء)

- قد يقولُ قائلٌ إذا كانت التقوى بهذه المنزلة في الإسلامِ فهي صفةٌ لابدَّ منها للمؤمنِ لينالَ رضاءَ اللهِ ورضوانَهُ ويُحقِّقَ السعادةَ في الدارين.فكيفَ نكونُ من المؤمنينَ الحقيقيين؟ ألا تَصِفُ لنا أعمالَ التقي، أقول: المتقي من يحافظُ على جميعِ الطاعاتِ على أحسنِ وجهٍ ويعملُ بأوامرِ اللهِ على أفضلِ صورةٍ ويبتعدُ عن المعاصي ولو صَغُرَتْ وعمَّا نهى اللهُ عنه في السرِّ والعَلَنِ.

□ فما هي أهم أعمال المتقي؟

١) المتقي مخلصٌ في أقوالِهِ وأعمالِهِ ونيَّاتِهِ مُبتعدٌ عن الرياءِ في جميعِ أشكالِهِ.

٢) المتقي يُداوم على قراءةِ القرآنِ وحفظِهِ، وعلى ذكْرِ اللهِ في كلِّ أحوالِهِ مُبتعداً عن الغَفَلات والمُلْهِيات، المتقي يسعى إلى عالمٍ مُرَبٍّ يجلِسُ بين يديه ليتربَّى على يديه ويرشدَهُ إلى الطريقِ المستقيمِ ويُعَرِّفَهُ بالمنهجِ السليمِ.

٣) المتقي بارٌّ بوالديه واصلٌ لأرحامِهِ مُبتعدٌ عن العقوق والقطيعة.

٤) المتقي عارفٌ لواجباتِهِ مُؤَدٍّ حقوقَ الآخرينَ يتعاونُ معَهم على البرِّ والتقوى مبتعدٌ عن النفاقِ والفسوقِ لا يَحْسُدُ ولا يَحْقِدُ ولا يخونُ ولا يكْذِبُ ولا يستغيبُ ولا يهزأُ ولا يَسْخَرُ من الآخَرِينَ أبداً.

٥) المتقي يَغُضُّ بصرَهُ عن الحرامِ ويحفَظُ القلبَ واللسانَ ويبتعدُ عن أهلِ الخَنَى والعصيانِ.

٦) المتقي مُتَمَسِّكٌ بالحَلَالِ مهما كانَ صعْبَ المنالِ شعاره: مهما قَلَّ الحلالُ فالبركةُ فيه، مبتعدٌ عن الحرامِ مهما كانَ سهلَ المنالِ شعاره: أما الحرامُ فالممات دونَهُ.

٧) المتقي هو الذي يطلُبُ الحلالَ ويبتعدُ عن الحرام واضعاً نُصْبَ عينيه قولَ النبيِّ ﷺ: «طلبُ الحَلالِ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ». (أخرجه الطبراني بإسناد حسن)

- لا يَغيبُ عنه قولُ النبيِّ ﷺ: «من اشترى ثوباً بعشَرَةِ دراهمَ وفيها درهمٌ واحدٌ من حَرامٍ لم يقبلِ الله له من صلاةٍ ما دامَ عليه». (أخرجه أحمد في مسنده)

- تراه خائفاً من أنْ ينطبقَ عليه قولُ النبيِّ ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبالي المرءُ ما أخَذَ أمِنَ الحلالِ أم مِنَ الحرامِ، فإذْ ذاكَ لا تُجَابُ لهم دعوةٌ».

(أخرجه البخاري)

- سألَ سعدٌ ﷺ رسولَ اللهِ ﷺ أن يكونَ مُجابَ الدعوةِ فقالَ لهُ ﷺ: «يا سعدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ (أي اجعل طعامَكَ حَلالاً) تكنْ مُستجابَ الدعوةِ والذي نفسي بيدِهِ إنَّ العبدَ ليقذفُ اللقمةَ الحرامَ في جوفِهِ ما يُتَقَبَّلُ منه عملُ أربعينَ يوما وأيُّمَا عبدٍ نبتَ لحمُهُ من سحْتٍ فالنارُ أولى به». (أخرجه الطبراني الأوسط)

٨) المتقي يسعى إلى أن يصلَ إلى أعلى مستوى من التقوى وهو ما يُسمَّى بالورعِ، والورعُ هو أن يجتنبَ المسلمُ الشبهاتِ خوفاً من الوقوع في الحرمات، وأن لا يُسْرِفَ في المباحاتِ تطبيقاً لقولِ النبيِّ ﷺ: «إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به، حَذَرَاً مما به بأسٌ». (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- قال رسول الله ﷺ لأبي هريرةَ ﷺ: «كنْ وَرِعَاً تكنْ أَعْبَدَ الناسِ».

(أخرجه ابن ماجه والبيهقي)

ويُعَبِّرُ عن ذلك أحد الصحابة ﷺ فيقولُ: (كنا نَدَعُ سبعينَ باباً من الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في باب من الحرامِ). (مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية جزء ص٢٢)

- وعبَّرَ سيدُنا عمرُ ﷺ عن ذلك فقالَ: (كنا نَدَعُ تسعَةَ أعشارِ الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في الحرام). (أخرجه عبد الرزاق في مصنفه)

- وقالَ رسول الله ﷺ: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تَبْلُغوا الاستقامة».

(أخرجه ابن عساكر والديلمي في جامع الأحاديث عن عمر ﷺ)

- (وهذا حسانُ بنُ أبي سنانٍ (ورأى أنس بن مالك ﷺ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية) كان لا ينامُ مضطجعا حتى لا يفوتَه التهجدُ، رُئي في المنامِ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ: خيراً إلا أني محبوسٌ عن الجنة بإبرةٍ استعرتُهَا فلم أردَّها.

ورُئِيَ عُتبةُ الغلامُ (الزاهد الخاشع الخائف) وهو من كبارِ الصالحينَ في مكانٍ يتصبَّبُ عرَقاً في الشتاءِ فقيل له في ذلك، فقالَ: (إنه مكان عصيْتُ اللهَ فيه فَسُئِلَ عنه فقالَ: كَشَطْتُ من هذا الجدارِ قطعةَ طينٍ غَسَلَ بها ضيفٌ لي يدَهُ ولم أستَحِلَّ من صاحبِه.

- ورَجَعَ ابنُ المباركِ من مَرْوَ إلى الشامِ ليردَّ قلماً استعارَهُ من صاحبِه).

(الرسالة القشيرية: ص١١٣- ١١٤)

- وحُكِيَ عن بعضِهم أنه كانَ حينما يريدُ الخروجَ صباحا لطلبِ الرزقِ يتعلَّقُ به أهلُهُ وبنوه يقولون: (نَنْشُدُكَ اللهَ لا تُدْخِلْ علينا شيئاً من الحرامِ، فإنا نصبرُ على الفقرِ ولا نصبرُ على النارِ).

- هذه هي التقوى في أعلى مراتبها، فما أحلى أن نتزودَ بها قال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

هذه التقوى التي عَدَّها الله ﷻ خيرَ لباسٍ يرتديه الإنسانُ، قال تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

- لقد وصفَ اللهُ عبادهُ عبادَ الرحمن وهم يدعونه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

- قالَ نافعٌ: (خرجْتُ معَ ابنِ عمَر رضي الله عنهما إلى بعضِ نواحي المدينة، فوضعنا سُفرةً فمر بنا راعٍ، فقالَ له عبدُ اللهِ هَلُمَّ يا راعي فقالَ إني صائمٌ، فقالَ: في مثلِ هذا اليومِ الشديدِ حَرُّهُ في هذا الشِّعْبِ؟ قالَ: أُبَادِرُ أيامي أصومُ في حَرِّ هذا اليومِ مخافَةَ حَرِّ يومِ القيامة، فقالَ له عبدُ اللهِ ﷺ هل لك أن تبيعَنا شاةً ونُعْطِيَكَ من لحمِها ما تُفْطِرُ عليه ؟ قالَ الراعي: إنها لمولاي فقالَ عبدُ الله ممتحناً له فما عسى أن يصنعَ مولاك إن قلْت أكلَها الذئبُ؟ فمضى الراعي وهو يرفع إِصْبَعَهُ إلى السماءِ ويقولُ بصوتٍ ملأَ أركانَ الصحراءِ: فأينَ اللهُ؟ فأينَ اللهُ؟ فأينَ اللهُ؟ فلم يَزَلْ ابنُ عمرَ يقولُ وهو يبكي فأينَ الله فأين الله ثُمَّ بعثَ إلى سيِّدِ العبدِ فاشتراهُ منه واشترى الغنمَ فأعتقَ الراعيَ ووهبَهُ الغنمَ). (أحسن المحاسن، الطبراني ص١٨٦)

وقال إبراهيم بن أدهم: (بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس؛ فلما كان بعض الليل نزل ملكان، فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم.

فقال: ذاك الذي حط اللهُ سبحانه درجة من درجاته.

فقال: لم؟ قال: لأنه اشترى بالبصرة تمراً، فوقعت تمرةٌ على تَمْرِهِ من تَمْرِ البقالِ، فلم يردها على صاحبها.

قال إبراهيم: فمضيت إلى البصرة، واشتريت التمر من ذلك الرجل، وأوقعتُ تمرةً على تَمْرِهِ، ورجعت إلى بيت المقدس، وبت تحت الصخرة.

فلما كان بعض الليل، إذ أنا بملكين نزلا من السماء.

فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم: فقال: ذلك الذي رد الله مكانه، ورُفعت درجته). (الرسالة القشيرية: ص١٠٨)

خامساً- مقام الإخلاص

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ (الزمر: ١١)

- افتتحَ أصحابُ الصِّحاحِ كتبَهُمْ بالحديثِ المشهورِ الذي رواه سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى»... إلى آخر الحديث. (أخرجَه الشيخانِ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ)

(قالَ العلماءُ في هذا الحديثِ: ليسَ في أخبارِ النبيِّ ﷺ شيءٌ أجْمَعَ، وأغنى وأكثرَ فائدةً، من هذا الحديثِ.

- ورُوِيَ عن الشافعيِّ وأحمد بن حنبل وغيرهم من العلماء رحمَهم اللهُ تعالى، أنهم قالوا: هذا الحديثُ ثُلُثُ الإسلام). (فتح الباري، ابن حجر جزء١ ص٢)

- في هذا الحديثِ تنبيهٌ هامٌّ للمسلمينَ لأهمية النية، وأنَّ أيَّ عملٍ تَلْزَمُهُ النيةُ، وبالنيةِ ينال الإنسانُ الحسناتِ أو السيئاتِ، ولا يُقْبَلُ عملٌ بغيرِ نية، والعملُ المقبولُ، هو ما أخْلَصَ المؤمنُ فيه نِيَّتَهُ، وجعلَهُ خالصاً لوجه الله، لا يُشْرِكُ به أحداً، ولا يُريدُ به وجهَ أحدٍ إلا اللهُ سبحانَهُ وتعالى، وهذا العملُ يُسمى إخلاصاً، أي جعلَهُ المرءُ خالصاً للهِ تعالى، وبذلكَ ينالُ العبدُ ثوابَ العملِ من اللهِ سبحانَهُ وتعالى.

- قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن النية: (هي رأس الأمر وعموده، وأساسه وأصله الذي يبنى عليه، فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابعٌ لها يبنى عليها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وهي يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة). (إعلام الموقعين جزء٤ ص٩٩)

- وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الإخلاصِ ما هو؟ فقالَ: «سألْتُ جبريلَ عليه السلامُ عن الإخلاصِ ما هو؟ قالَ: سألْتُ ربَّ العزةِ عن الإخلاصِ ما هو؟ قال: سِرٌّ من سِرِّي استودعْتُهُ قلْبَ من أحببْتُهُ من عبادي». (أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة)

- ومن هذا القبيل، قول أبي القاسم القشيري رحمه الله معرفاً الإخلاص: (الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص). (الرسالة القشيرية: ص٢٠٧)

- وقال الجنيدُ: (الإخلاصُ سرٌّ بينَ اللهِ والعبدِ، لا يعلمُهُ مَلَكٌ، فيكتبَهُ، ولا شيطانٌ، فيفسدَهُ، ولا هوى، فَيُميلَهُ). (المصدر نفسه: ص٢٠٨)

- وقالَ ذو النونِ المصريُّ: (ثلاثٌ من علاماتِ الإخلاصِ: استواءُ المدْحِ والذمِّ من العامَّةِ، ونِسيانُ رؤيةِ الأعمالِ، ونسيانُ اقتضاءِ ثوابِ العملِ في الآخرةِ).

(المصدر نفسه: ص٢٠٨)

- فالإخلاصُ ألا تطلبَ على عملكَ شاهداً غيرَ اللهِ، ولا مجازياً سواهُ. حيث رُويَ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ: (قَرأتُ البارحةَ البقرةَ، فقالَ: ذلكَ حظُّكَ منها، أيْ هذا الإعلانُ هو ثوابُكَ منها). (إحياء علوم الدين، الغزالي جزء٥ ص٦٣)

- وسُئلَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ: (أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ؟ فقالَ: الإخلاصُ لأنَّهُ ليسَ لها فيه نصيبٌ). (الرسالة القشيرية: ص٢٠٩)

- والإخلاص مصدر وفعله أخلص، ومجرد الفعل خلص، ومعناه: صفا وزال عنه ما يَشُوبُهُ من الشوائب، فذهب خالص: ذهب صافٍ لا شائبة فيه.

- وأخلص الشيء: صفاه ونقاه مما يشوبه.

- وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله.

- وسورة الإخلاص هي سورة: قل هو الله أحد، وهي سورة التوحيد.

- والإخلاص شرعاً: هو صفاء النية، ونقاء السريرة من الشرك والرياء، وإرادة وجه الله تعالى، وحيازة رضاه في كل اعتقاد أو قول أو عمل.

- وللإخلاصِ أهميةٌ كبرى فهو طريق رضا الرحمن، وقبول الأعمال، ورفع الدرجات، والوصول إلى الجنات، وله أهمية في دفعِ الفتنِ عن الأمةِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «طوبى للمخلصينَ أولئكَ مصابيحُ الدُّجى تنجلي عنهم كلُّ فتنةٍ ظلماء».

(أخرجه البيهقي في شعبه)

- وللإخلاصِ أيضاً أهميةٌ كُبرى في تكوينِ شخصيةِ المسلمِ، لأنَّهُ يحتاجُ إلى إيمانٍ يقينيٍّ، وصِدْقٍ ربانيٍّ، وإرادةٍ فُولاذية، وهمةٍ عاليةٍ، وصبرٍ شديد.

- والإخلاصُ يُضادُّهُ الشرك الخفيُّ أي الرياءُ، فمنْ لم يكنْ مُخلصاً، فهو مُشْرِكٌ، إلا أنَّ الشِّرْكَ درجاتٌ، فالإخلاصُ وضِدُّهُ، يتواردانِ على القلْبِ، لأنَّ الإخلاصَ محلُّهُ القلبُ، وإنما يكونُ ذلكَ في المقاصدِ والنيات، ومنْ هنا جاءتْ أهميةُ الإخلاصِ، لأنَّهُ سرٌّ ولا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ سبحانَهُ فيكونُ الإخلاصُ، بالتوجُّهِ إلى اللهِ وحدَهُ، وإفرادِهِ بالتوحيدِ والعبادةِ، والطاعةِ، والحبِّ، والتذلُّلِ، والتخشُّعِ، قاصداً من كلِّ ذلكَ، إرضاءَهُ سبحانَهُ دونَ سواهُ، في كلِّ عملٍ من أعمالِهِ، وحركةٍ من حركاتِهِ، وسَكَنَةٍ من سَكَنَاتِهِ، وخَطْرَةٍ، من خَطَرَاتِ قلبِهِ، وحديثِ نفسِهِ.

- يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

- وقد وردَ في سببِ نزولِ هذه الآية، عدَّةُ أقوالٍ منها:

- قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ: (نَزَلَتْ في جُنْدُبِ بنِ زهيرٍ العامريِّ، قالَ: قالَ يا رسولَ اللهِ، إني أعملُ العملَ للهِ تعالى، وأُريدُ وجهَ اللهِ تعالى، إلا أنَّهُ إذا اطُّلِعَ عليهِ سَرَّني، فقالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ، ولا يَقْبَلُ إلا الطيبَ، ولا يقبلُ ما شُوْرِكَ فيه» فنزلت الآية. (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وقالَ طاووسٌ (اليماني التابعي الكبير المشهور، أخذ القرآن عن ابن عباس ومُعْظمُ روايته عنه): (قالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ، إني أحبُّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وأحبُّ أنْ يُرَى مكاني، فنزلَتِ الآيةُ). (الجامع لأحكام القرآن)

- وقالَ مجاهدٌ: (جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إني أتَصَدَّقُ، وأَصِلُ الرَّحِمَ، ولا أَصْنَعُ ذلكَ إلا لله تعالى، فَيُذْكَرُ ذلكَ مني، وأُحْمَدُ عليه، فَيَسُرُّني ذلكَ، وأُعْجَبُ به، فَسَكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَقُلْ شَيئاً، فنزلت الآيةُ).

(الجامع لأحكام القرآن)

- ومهما كانَ سببُ نُزولِ الآيةِ، فالعبرةُ في عمومِها، لأنَّ الإخلاصَ مطلوبٌ في كلِّ شيءٍ.

- لذلكَ، فإنَّ سيِّدَنا عمرَ ﷺ عندَما كان يقرأُ، أو يسمعُ هذه الآيةَ، كان يقولُ: (اللَّهمَّ اجعلْ عملي كلَّهُ صالحاً، واجعلْهُ لكَ خالصاً، ولا تجعلْ لغيرك منه شيئاً). (طبقات المحدثين بأصبهان، أبو الشيخ الأصبهاني)

- وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، أنه قالَ: (خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ ونحنُ نتذاكَرُ المسيحَ الدجالَ، فقالَ: «ألا أُخبِرُكُم بما هو أخوفُ عليكم عندي منَ المسيحِ الدَّجالِ؟، قال: قلنا بلى، فقالَ: الشركُ الخَفِيُّ، أن يقومَ الرجلُ فيصلي فَيُزَيِّنُ صلاتَهُ، لما يَرَى من نَظَرِ رجلٍ». (أخرجه ابن ماجه، والبيهقي، والحاكم)

- وفي الأَثَرِ: (منْ صَلَّى يُرائي فقدْ أَشْرَكَ). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وجاءَ أيضاً: (ومنْ تَصَدَّقَ يُرائي فقدْ أَشْرَكَ). (أخرجه الحاكم في المستدرك)

- وقياساً على ذلك، من صامَ يُرائي فقد أَشْرَكَ، ومن حَجَّ يُرائي فقد أَشْرَكَ، وكذلكَ جميعُ الأعمالِ التي يُراءَى بها، فصاحبها قد أَشْرَكَ، وفي الحديث القُدْسيِّ يقولُ اللهُ تعالى: «أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشِّركِ، فمنْ عملَ لي عملاً أَشركَ فيه غيري فأنا منهُ بريءٌ، وهو للذي أشركَ». (أخرجه ابن ماجه)

- مما سبقَ نجدُ أنَّ الرياءَ وهو الشِّركُ الخفيُّ، هو نَقيضُ الإخلاصِ، والرياءُ إذا داخَلَ الأعمالَ الصالحةَ، وإن كانت في أتمِّ صُورِها، يَقلِبُهَا إلى أعمالٍ تُوجِبُ اللَّومَ والعُقُوبَةَ، قالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٧].

- وقالَ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

[الفرقان: ٢٣]

- لذلك قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَخلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ العملُ القليلُ».

(أخرجه الحاكم في مستدركه عن معاذ ﷺ)

- والمؤمنُ الحقُّ يَرتَقِي بإخلاصِهِ إلى أرفعِ الدرجاتِ، وهي عبادةُ اللهِ وحدَهُ، يَبْتَغِي وجهَهُ، دُونَ أنْ يَقْصِدَ ثَواباً.

- وكما قالَ الشاعرُ:

فما مَقْصُودُهُمْ جنـاتُ عـدنٍ ... ولا الحورُ الحِسانُ ولا الخِيامُ

سِوى نَظَرِ الجَلِيلِ وذا مُنـاهُمْ ... وهذا مقـصِدُ القـومِ الكـرام

- وكما قالتْ رابعةُ: (يا ربِّ، ما عَبدتُكَ خَوفاً منْ نَارِكَ، ولا طَمعاً في جنتِكَ، وإنما عَبَدْتُكَ لذاتِكَ، لأنَّكَ تَستَحِقُّ ذلكَ).

- لأنهُ لو لَمْ يكنْ ثَمَّةَ ثَوابٌ، ولا عِقَابٌ، ولا جَنَّةٌ ولا نَارٌ، لَمَا تَأَخَّرَ الصَّادِقُونَ عن عبادةِ ربِّهم، لأنَّهم يعبدونَ اللهَ، حُبّاً له، وطَلَباً لِقُرْبِه، ورضوانِه، بَعدَ أنْ أدركوا نِعَمَهُ وآلاءَهُ، وذاقوا بِرَّهُ وإحسانَهُ. وليس معنى هذا أنَّهم لا يُحبون دخولَ الجنةِ، ولا يَرْغَبُون في البُعْدِ عن النارِ، فهم يُحبون الجنةَ ويطلبونها، لأنها مَظْهَرُ حُبِّ اللهِ، ورضائِهِ وقربِه، ويكرهون النارَ، ويخافونها، لأنها مظهرُ سخطِ اللهِ وغضبِهِ ونِقْمَتِه، ولعظيمِ شأنِ النيةِ، تحدَّثَ عنها العلماءُ كثيراً، ونَبَّهُوا إلى أهميَّتِها.

- قالَ يحيى بنُ كثيرٍ (البصري الحافظ): (تعلَّموا النيةَ، فإنها أَبْلَغُ من العملِ).

(حلية الأولياء، أبو نعيم)

- وقالَ ابن المبارك: (رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعَظِّمُهُ النيةُ، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تُصَغِّرُهُ النيةُ).

(الإخلاص والنية، ابن أبي الدنيا ص٧٣)

- وقالَ آخرون: (تجارةُ النياتِ، تجارةُ العلماءِ، وذلك لأنَّ العلماءَ يعرفون كيفَ يُدخلونَ النيةَ في جميعِ أعمالِهم، مهما تنوَّعَتْ، فيحصلونَ على ما يريدون، مع حصولِ الثوابِ على تلكَ الأعمال وإن كانت ممَّا يدخلُ في مجالِ العاداتِ، فباستحضارِهم للنيةِ الصالحة معَ هذه الأعمالِ تصبحُ أعمالاً صالحةً).

- فالتطيُّبُ مثلاً، إذا قُصِدَ به التَّلذُّذُ والتَّنعُّمُ، فهو مُباحٌ، وإنْ نُوِيَ به اتباعُ سُنَّةِ الرسولِ ﷺ فهو قُربى، وفيهِ ثوابٌ، وإن نُوِيَ به التَّودُّدُ إلى قلوبِ النساءِ الأجنبيات، أو التفاخرُ والتكاثرُ، فهذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً، ويوجِبُ العقوبةَ، وكذلكَ سائرُ الأعمالِ.

- فإذاً، المباحُ بالنيَّةِ الصَّالحة، يرتفعُ إلى درجةِ الطَّاعةِ ورضاءِ اللهِ، وبالنيَّةِ الفاسدةِ يتحولُ إلى معصيةٍ، أكلُ الطَّعامِ وشُربُ الماءِ مُباحٌ، فإن نَوينا بهما نيَّةً صَالحةً فقُلنا: (بسم الله الرحمن الرحيم، نَويتُ التَّقويَ على طاعةِ اللهِ). حصلنا على ثوابٍ كبيرٍ.

- وكذلكَ في العملِ: (نَويتُ فَتحَ محلي وقضاءَ حوائجِ عبادِ اللهِ) بهذه النيَّةِ نحصلُ على ثوابٍ كبيرٍ، وفي زيارةِ مريضٍ: (نويتُ عيادَتَهُ تَقرُّباً لله تعالى)، وفي التَّعزيةِ: (نَويتُ تعزيةَ أهلِ الميِّتِ لله تعالى امتثالاً لأمرِ النبيِّ ﷺ وأداءً لحقِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ)، وكذلكَ في الزواجِ: (إنْ كانت النيةُ تَعفُّفاً عن الحرامِ وغَضَّاً للبَصَرِ، وهكذا في سائرِ الأعمالِ).

- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

- وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أهمية النيَّة، فقد روى أبو كَبْشةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال:

«إنَّما الدُّنيا، لأربعةِ نَفَرٍ: عبدٌ رزقَهُ اللهُ مالاً وعِلْمَاً، فهو يَتَّقِي فيه ربَّهُ، ويَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ويَعلمُ للهِ فيه حَقَّاً، فهذا بأفضلِ المنازلِ.

وعبدٌ رزقَهُ اللهُ عِلمَاً، ولَمْ يَرزقهُ مَالاً، فَهوُ صَادِقُ النِّيَّةِ فيقولُ: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِه، فأجرُهما سَواءٌ.

وعبدٌ رزقَهُ اللهُ مَالاً، ولَمْ يرزقْهُ عِلْمَاً، فهو يَتَخبَّطُ في مالِه بغيرِ علمٍ، لا يتقي فيه ربَّهُ، ولا يَصلُ فيه رحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ فيه للهِ حقاً فهذا بأخبثِ المنازلِ.

وعبدٌ لَمْ يرزقْهُ اللهُ مالاً، ولا علْماً وهو يقولُ: لو أنَّ لي مَالاً لعَمِلْتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِه فَوِزْرُهُمَا سَواءٌ، أو كَمَا قالَ ﷺ». (أخرجه أحمد والترمذي)

- وينبغي للمسلم أن يعلم أن للإخلاص ثمرات وفوائد كثيرة يجنيها إن تحقق به من أهمها:

أولاً- الإخلاص وسيلة هامة من وسائل تفريج الكروب والأحزان، وحلّ لكثير من الأمراض والمشاكل التي تواجهه في الدنيا، وأظهر شيء لهذا الموضوع حديث رسول الله ﷺ: فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْماً، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». (أخرجه البخاري)

ثانياً- الإخلاص من أهم الوسائل للتخلص من الشيطان، بل والتمكن من الانتصار عليه وقهره، والخلاص من إغوائه وإغرائه، وهذا ما حكاه القرآن من قول الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩-٤٠).

- وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. [ص: ٨٢-٨٣]

- وعلى سبيل التوضيح لهذا الموضوع نورد القصة التي ذكرها الغزالي في بحث الإخلاص وهي:

(أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه

وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك فنظر العابد فإذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولاً وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك). (إحياء علوم الدين: جزء٣ ص٣٧٧)

ثالثاً- الإخلاص ينجي صاحبه من هموم الدنيا وآلامها، ويدخله يوم القيامة الجنة، وينجيه من النار، لأنه أخلص نيته وعمله لله تعالى، وابتعد عن الشرك الخفي وهو الرياء يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾.
[الصافات: ٣٨-٤١]

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧٢- ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٨- ١٦٠].

- من كل ذلك ينبغي للمؤمن أن يتحرى دائماً قصص المخلصين وأعمالهم ليستفيد منها ويأخذ دروساً تعظه في سائر حياته، فيعمل عملهم ويتأسى بهم، وخير ما يحقق له ذلك أن يقرأ دائماً سيرة النبي ﷺ، فيرى فيها كامل الإخلاص في كل أعماله وأقواله، وأفعاله وتقريراته ﷺ، فهو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، قال ﷻ عنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.
[الأحزاب: ٢١]

- ولقد أثر النبي ﷺ في أصحابه وزكاهم ورباهم فغير الكثير من صفاتهم في كل مجالات الحياة، ولو تتبعنا أخبار الصحابة والتابعين والصالحين في موضوع الإخلاص لوجدنا الكثير منها:

- روى الأوزاعي أن عمر بن الخطاب ﷺ: (خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتاً آخر فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك قالت إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى فقال طلحة ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع). (أخرجه أبو نعيم في الحلية)

- وقصة صاحب النقب في هذا الموضوع مشهورة يؤخذ منها فوائد وعبر كثيرة يستفيد منها كل مؤمن فيلتزم الإخلاصَ في كل شؤون حياته وتصرفاته.

- حدّثنا أبو عمرو الصّفّار قال: (حاصر مسلمة حصنا فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد. فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه اللّه عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء. فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألاّ تسوّدوا اسمه في صحيفة "إلى الخليفة" ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب).

(عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري جزء١ ص١٧٢)